الباب الثانى عشر

الفكر والفن فى بلاد الإسلام الشرقية

٦٣٢ – ١٠٥٨

الفصل الأول

التعليم

تدل الأحاديث النبوية على أن النبى كان يحث على طلب العلم ويعجب به ، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين فيقول : « من سلك طريقاً يطلب علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء »(١) .

ولقد كان اتصال العرب بالثقافة اليونانية فى بلاد الشام مما أيقظ فيهم روح المنافسة العلمية القوية لليونان ، ولم يمض إلا زمن قليل حتى أصبح العالم والشاعر من أصحاب المكانة العليا فى بلاد الإسلام .

وكان تعليم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الكلام . فكانوا من هذه اللحظة يعلمون النطق بالشهادتين « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فإذا بلغ الأطفال السادسة من العمر ألحق بعض أبناء الأرقاء ، وبعض البنات ، وجميع الأولاد ، عدا أبناء الأغنياء (الذين كان لهم معلمون خصوصيون) بمدرسة أولية ملحقة فى العادة بأحد المساجد ، وفى بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة فى الخلاء . وكان التعليم فى هذه المدارس عادة بالمجان ، فإن لم يكن فقد كان أجره تافها يستطيع أداءه جميع الناس ؛ فقد كان المعلم يتناول من والد الطفل

مصنع للورق فى بلاد الإسلام فى بغداد عام ٧٩٤ على يد الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد . ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسپانيا ومنهما انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا . وقبل هذا نجد الورق مستخدما فى بلاد الصين منذ عام ١٠٥ م ، ثم نجده فى مكة سنة ٧٠٧ ، وفى مصر سنة ٨٠٠ ، وفى أسپانيا سنة ٩٥٠ ، وفى القسطنطينية سنة ١١٠٠ ، وفى صقلية سنة ١١٠٢ ، وفى إيطاليا سنة ١١٥٤ ، وفى ألمانيا سنة ١٢٢٨ ، وفى إنجلترا سنة ١٣٠٩(٧) . ويسر هذا الاختراع تأليف الكتب فى كل بلد انتقل إليه ، ويقول اليعقوبى إنه كان فى بغداد على أيامه (٨٩١) أكثر من مائة بائع للكتب ، كانت حوانيتهم تستخدم ، فضلا عن بيع الكتب ، لنسخها ، وكتابة الخط المزخرف ، كما كانت ندوات أدبية . وكان كثير من الطلاب يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات ، وبيعها لتجار الكتب ، ونسمع فى القرن العاشر الميلادى عن أناس يجمعون توقيعات العظماء وخطوطهم ، وعن غواة للكتب يسعون لجمعها ويعرضون أثمانا عالية للمخطوطات النادرة(٨) . ولم يكن المؤلفون يحصلون على شىء من بيع كتبهم ؛ وكانوا يعتمدون فى معاشهم على وسائل للرزق أثبت من هذه وأقوى أساساً ، أو على هبات الأمراء أو الأثرياء . ذلك أن الأدب والفن كان يقصد بهما إشباع ذوق طبقة الأشراف من ذوى المال أو الحسب والنسب .

وكانت فى معظم المساجد مكتبات ، كما كان فى معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم . وكان فى مدينة الموصل عام ٩٥٠ مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين ، يجد فيها من يؤمونها حاجتهم من الكتب والورق . وبلغت فهارس الكتب التى اشتملت عليها مكتبة الرى العامة عشر مجلدات . وكانت مكتبة البصرة تعطى رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب ؛ وقضى ياقوت الجغرافى فى مكتبتى مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التى يتطلبها كتابه معجم البلدان . ولما أن

دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة[٩] ، فضلا عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة ، ذلك أنه كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتنى الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب . ودعا سلطان بخارى طبيبا مشهوراً ليقيم فى بلاطه فأبى محتجاً بأنه يحتاج إلى أربعمائة جمل لينقل عليها كتبه[١٠] . ولما مات الواقدى ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب ، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه . « وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما فى دور الكتب الأوربية مجتمعة »[١٢] . ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب فى بلد آخر من بلاد العالم — اللهم إلا فى بلاد الصين فى عهد منج هوانج — ما بلغه فى بلاد الإسلام فى القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر . ففى هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية . ولم يكن العلماء فى آلاف المساجد المنتشرة فى البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة ، وكانت إيواناتها تردد أصداء علمهم وفصاحتهم ، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين ، والمؤرخين ، وعلماء الدين ، يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة ؛ وكان بلاط مئات الأمراء يرددون أصداء قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية ؛ ولم يكن أحد يجرؤ على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون . وسرعان ما استوعب العرب ذوو البديهة الوقادة ثقافة الأمم التى فتحوا بلادها ، وبلغ من تسامح المغلوبين أن أصبحت منهم الكثرة الغالبة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة الذين جعلوا اللغة العربية أغنى لغات العالم فى العلوم والآداب . وإن كان العرب الأصليون أقلية صغيرة بين هولاء الفلاسفة ، والعلماء ، والشعراء .

وقد قوى علماء الإسلام فى ذلك العهد دعائم الأدب العربى الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو الذى جعل اللغة العربية لغة المنطق والقياس ؛ وبما وضعوه من المعاجم التى جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات فى دقة ونظام ؛ وبموسوعاتهم ، ومختصراتهم ، وكتبهم الجامعة ، التى جمعت كثيراً من أشتات الآداب والعلوم

لولاها لخسرها العالم ؛ وبمؤلفاتهم فى النصوص ، والأدب ، والنقد التاريخى ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر أسماء هؤلاء العلماء الأعلام ، وحسبنا أن نعترف بفضلهم ونمجد أعمالهم .

وأكثر من تحتفظ الذاكرة بأسمائهم من بين أولئك العلماء هم المؤرخون ، لأننا مدينون لهم بما نعرفه عن تلك الحضارة التى لولاهم لظلت غامضة غموض حضارة مصر الفرعونية قبل شمپليون . ومن هؤلاء المؤرخين محمد ابن إسحق (المتوفى عام ٧٦٧) كاتب سيرة النبى ؛ وقد راجعها وزاد عليها ابن هشام (٧٦٣) فكانت أقدم كتاب عربى منثور ذا شأن عظيم وصل إلى أيدينا — إذا استثنينا من ذلك القرآن (الكريم) نفسه . وقد كتب العلماء الباحثون المجدون كتباً جامعة فى سير الأولياء الصالحين ، والفلاسفة ، والوزراء ، والمشترعين ، والأطباء ، والخطاطين ، وكبار الحكام ، والعشاق ، والعلماء . وكان ابن قتيبة أحد علماء الإسلام الكثيرين الذين حاولوا كتابة تاريخ للعالم ، ولقد بلغ من الشجاعة درجة أوحت إليه أن يجعل نصيب الدين الذى ينتمى إليه لا يشغل من الكتاب إلا ذلك الحيز المتواضع الذى يجب ألا يزيد عليه تاريخ أية أمة أو أى دين فى كتاب تاريخ جامع لأحداث الدهر الكثيرة . وأخرج محمد بن النديم فى عام ٩٨٧ كتابه « *فهرست العلوم* » أرخ فيه لكل كتاب ظهر فى اللغة العربية ، مؤلفاً كان أو مترجماً ، فى كل فرع من فروع العلم ، وأضاف إلى أسماء الكتب ترجمة نقدية لمؤلفيها ، ذكر فيها فضائل كل مؤلف وعيوبه . وفى وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامى فى أيامه إذا عرف أن الكتب التى ذكرها — على ما نعلم — لم يبق منها الآن واحد فى الألف[١٣] .

وشبيه بليفى فى الغرب أبو جعفر محمد الطبرى (٨٣٨ — ٩٢٣) عند المسلمين[١٤] . وكان أبو جعفر من أصل فارسى كما كان كثيرون من المؤلفين المسلمين ، ولد فى طبارستان الواقعة فى جنوب بحر قزوين . وبعد أن ظل عدة

سنين يطوف فى بلاد العرب والشام ومصر ، كما يطوف الفقراء من العلماء من أهل زمانه ، استقر فى بغداد واشتغل بالقضاء . ووهب أربعين عاماً من حياته لكتابة تاريخ عام سماه *كتاب أخبار الأمم والملوك* قص فيهَ تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى عام ٩١٣ . والجزء الباقى إلى الآن من هذا الكتاب يشمل خمسة عشر مجلداً كبيراً ، ويقول المؤرخون إن ما فقد منه يبلغ عشرة أمثال هذا الجزء الباقى . ويرى الطبرى ، كما يرى بوسويه **Boussuet** ، يد الله فى كل حادثة تقع فى العالم ، وقد ملأ الفصول الأولى من كتابه بعبارات تشهد له بالتقوى ولكنها خالية من المعنى كقوله « فى امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السلام وابتلائه إياه بما امتحنه به من طاعته » وبأن الله أنزل على الأرض بيتاً مشيداً من الياقوت ليسكنه آدم ، فلما أن عصى آدم ربه عاد فرفعه عن الأرض(١٦) . ونهج الطبرى نهج التوراة فيما كتبه عن تاريخ اليهود ، وقال إن مريم العذراء ولدت المسيح (وإنها حملت به لأن جبريل نفخ فى كمها)(١٧) . وختم الجزء الأول من كتابه بصعود المسيح إلى السماء . أما الجزء الثانى فهو أقرب إلى العقل من الجزء الأول ، وفيه يقص تاريخ فارس فى عهد الساسانيين قصصاً مقبولا حياً ، ذا روعة فى بعض المواضع . ويتبع فيه طريقة إيراد الحوادث مرتبة حسب تواريخ وقوعها عاماً بعد عام ، وهى فى العادة مصنفة منقولة من راو عن راو قبله حتى يصل بها إلى من شاهدها بعينه ، أو وقعت فى أيامه . وفضل هذه الطريقة أنها تعنى بذكر المصادر ؛ ولكن الطبرى لا يحاول تنسيق الروايات المختلفة ليكون منها قصة موحدة متصلة ، ولهذا فإن تاريخه يبقى أكداساً من ثمار الجهد المضنى لا عملا من أعمال الفن .

ويرى المسعودى ، وهو أعظم من جاء بعد الطبرى من المؤرخين ، أن الطبرى أعظم من سبقه منهم . كان أبو الحسن على المسعودى من أصل عربى فى بغداد ؛ وجاب بلاد سوريا ، وفلسطين ، وبلاد العرب ، وزنجبار ، وفارس ، وأواسط آسية ، والهند ، وسرنديب (سيلان) ، بل يقول هو إنه وصل إلى بحر

الصين : وقد جمع ثمار رحلاته هذه فى موسوعة تشتمل على ثلاثين مجلداً ، رآها علماء الإسلام أنفسهم ، وهم المعروفون بغزارة مادتهم ، أطول مما يطيقون ؛ ثم نشر موجزاً لها كان هو الآخر أطول مما يجب ، ولعله رأى آخر الأمر أن قراءه لا يجدون من الوقت الذى يصرفونه فى القراءة مثل ما يجده هو منه ليصرفة فى الكتابة ، فاختصر كتابه مرة أخرى إلى الحد الذى نعرفه الآن وسماه بذلك الاسم الغريب « **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ». ودرس المسعودى جميع أحوال البلاد الممتدة من الصين إلى فرنسا من النواحى الجغرافية والنباتية ، والحيوانية ، والتاريخية ، كما درس عادات أهلها ، وأديانهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وآدابهم ، فكان فى العالم الإسلامى كما كان بلنى وهيرودوت فى العالم الغربى . ولم يوجز المسعودى فى كتابته إلى الحد الذى يجعلها عقيمة جافة ، بل كان فى بعض الأحيان يتبسط فيها ، وينطلق على سجيته ، فلا يحاجز نفسه عن أن يروى بين الفينة والفينة قصة ممتعة مسلية . وكان متشككاً بعض الشىء فى الدين ، ولكنه لم يفرض قط تشككه على قرائه : وقد لخص فى آخر سنة من حياته آراءه فى العلم ، والتاريخ ، والفلسفة فى كتاب **الاستذكار لما مر فى سائر الأعمار** ، وكتاب **ذخائر العلوم وما فى سائر الدهور** . وقد أشار إلى تطور الكائنات من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوات ، ومن الحيوان إلى الإنسان(١٨) : ولعل هذه الآراء قد جرته إلى المشاكل مع المحافظين من أهل بغداد ، فاضطر على حد قوله إلى مغادرة المدينة التى ولد فيها وشب وترعرع ، ورجاء إلى القاهرة وهو آسف على فراق موطنه . وقال فى هذا إن من طبيعة ذلك الزمان أن يفرق الناس جميعاً ويباعد بينهم . . . وإن الله يبارك للأمم إذا أحب أبناؤها مواطنهم ، وإن

من أمارات التقى والاستقامة أن يحن الإنسان إلى مسقط رأسه ، ومن علامات النبل وكرم المحتد أن يبغض الانفصال عن داره وموطنه(١٩) .

ووافته المنية فى القاهرة بعد عشر سنين قضاها بعيداً عن بلده .

وخير ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفوقون غيرهم فى اتساع دائرة جهودهم ، ونواحى نشاطهم ، واهتمامهم ، وأنهم يربطون الجغرافية بالتاريخ ربطاً موفقاً صحيحاً ، وأنهم لا يفوتهم شىء مما يتصل ببنى الإنسان ، وأنهم يعلون علواً كبيراً على معاصريهم من المؤرخين فى العالم المسيحى . ولكنهم مع هذا كله كثيراً ما يضلون فى دياجير السياسة ، والحرب ، والبلاغة اللفظية ؛ وقلما يعنون ببحث العلل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسانية التى تتحكم فى الحوادث ، وإن مجلداتهم الضخمة لتعوزها الطريقة البنائية المنتظمة ، فلسنا نجد فيها إلا أكداساً من حقائق غير مرتبطة ولا متناسقة — عن الأمم ، والحادثات ، والشخصيات ، وهم لا يرقون إلى مستوى بحث المصادر بحثاً(*) دقيقاً نزيهاً ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً ، مصدره شدة تقواهم واستمساكهم بالدين ، على الإجماع وتسلسل الروايات تسلسلا قد تكون حلقة من حلقاته خاطئة أو مخادعة . ومن أجل هذا تهبط قصتهم فى بعض الأحيان إلى مستوى أقاصيص الأطفال ، وتمتلئ بالنذر ، وأخبار المعجزات ، وبالأساطير . وكما أن فى وسع كثيرين من المؤرخين المسيحيين (مع استثناء جبن Gibbon على الدوام) أن يكتبوا تاريخ العصور الوسطى ، بحيث يجعلون الحضارة الإسلامية كلها ذيلا موجزاً للحروب الصليبية ، كذلك اقتضب كثيرون من المؤرخين المسلمين تاريخ العالم قبل الإسلام فجعلوه كله يدور حول الاستعداد لرسالة النبى محمد . على أننا نعود فنسأل أنفسنا كيف يستطيع العقل الغربى أن يصدر

(*) لا شك أن الكاتب ينظر إلى هؤلاء المؤرخين بعين هذه الأيام ويقيسهم بمؤرخى القرن العشرين . (المترجم)

على الشرق حكماً صحيحاً نزيها ؟ إن اللغة العربية تفقد جمالها فى الترجمة كما تفقد الزهرة جمالها إذا انتزعت من شجرتها ، وإن الموضوعات التى تمتلئ بها صحائف المؤرخين المسلمين ، وهى التى تبدو ذات روعة وجمال لبنى أوطانهم ، لتبدو مملة خالية من المتعة الطبيعية للقراء من أهل الغرب الذين لم يدركوا حتى الآن أن الصلات الاقتصادية بين الشعوب واعتماد بعضها على بعض يتطلبان أن يدرس كلاهما الآخر ويفهمه حق الفهم .

الفصل الثانى

العلوم (*)

لم يدخر المسلمون فى هذه القرون المجيدة من تاريخ الحياة الإسلامية جهداً فى العمل على إيجاد هذا التفاهم الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق : فلقد أدرك الخلفاء تأخر العرب فى العلم والفلسفة كما أدركوا ما خلفه اليونان من ثروة علمية غزيرة فى بلاد الشام . لقد كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية ، أو الصابئية ، أو الفارسية ، قائمة فى الإسكندرية ، وبيروت ، وأنطاكية ، وحران ، ونصيبين ، وغنديسابور لم يمسوها بأذى ، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب فى الفلسفة والعلم ، معظمها فى ترجمته السريانية . واستهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية ، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدى النساطرة المسيحيين أو اليهود . وشجع الأمراء من بنى أمية وبنى العباس هذه الاستدانة العلمية المثمرة ، وأرسل المنصور ، والمأمون ، والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الهلنستية — وأرسلوهم فى بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقدمين — يطلبون إليهم أن يمدوهم بالكتب اليونانية ، وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية . وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس فى الهندسة إلى أيدى المسلمين . وأنشأ المأمون فى بغداد عام ٨٣٠ بيت الحكمة وهو مجمع علمى ، ومرصد فلكى ، ومكتبة عامة ،

(*) واجب على كل كاتب عن العلوم عند المسلمين أن يسجل ما هو مدين به إلى جورج سارتن **Geroge Sarton** صاحب كتاب « المدخل فى تاريخ العلوم » . فليس هذا الكتاب القيم من أجل الأعمال فى تاريخ البحث العلمى فحسب ، بل إنه فوق ذلك قد أدى خدمة تجل عن التقدير إذ كشف عن غنى الثقافة الإسلامية واتساع مداها ، وإن العلماء فى كل مكان ليرجون من صميم قلوبهم أن يقدم كل ما يستطاع تقديمه من المعونة لإتمام هذا العمل الجليل .

وأنفق فى إنشائه مائتى ألف دينار (نحو ٩٥٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال. ويقول ابن خلدون(٢٠) إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمى باليقظة الإسلامية الكبرى التى اهتزت بها أرجاؤه والتى تشبه فى أسبابها — وهى انتشار التجارة ، وإعادة كشف كنوز اليونان — وفى نتائجها — وهى ازدهار العلوم والفنون — نقول إنها تشبه فى أسبابها ونتائجها النهضة الأوربية التى أعقبت العصور الوسطى .

ودامت هذه الأعمال ، أعمال الترجمة المخصبة المثمرة ، من عام ٧٥٠ إلى ٩٠٠ ، وفى هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية ، واليونانية ، والفهلوية ، والسنسكريتية . وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين فى بيت الحكمة طبيب نسطورى هو حنين بن إسحق (٨٠٩ — ٨٧٣) . وقد ترجم وحده — كما يقول هو نفسه — إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية ، وإلى اللغة العربية تسعا وثلاثين رسالة أخرى . وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء . وترجم حنين فضلا عن تلك الرسائل السالفة الذكر كتب المقولات (ويذكره العرب باسم قاطيغورياس) والطبيعة ، والأخلاق الكبرى لأرسطو ، وكتب الجمهورية ، وطيماوس ، والقوانين لأفلاطون ؛ وعهد أبقراط ، وكتاب الأقرباذين الديوسقريدس Dioscorides . وكتاب الأربعة لبطليموس ، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية . وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين على عمله هذا بمثل وزن الكتب التى ترجمها ذهباً . ولما ولى الخلافة المتوكل عينه طبيبا لبلاطه ، ولكنه زج به سنة فى السجن حين أبى أن يركب له دواء يقضى به على حياة عدو له مع أن الخليفة أنذره بالموت إن لم يفعل . وكان ابنه إسحق بن حنين يساعد أباه فى أعمال الترجمة ، ونقل هو إلى اللغة العربية من كتب أرسطو

كتب الميتافيزيقا ، **والنفس** ، **وفى توالد الحيوانات وفسادها** كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسى ، وهو كتاب كان له أثر كبير فى الفلسفة الإسلامية .

ولم يحل عام ٨٥٠ بعد الميلاد حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة فى علوم الرياضة ، والفلك ، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية . وعن طريق الترجمة العربية أطلق اسم المجسطى على كتاب بطليموس فى الفلك ، وبفضل الترجمة العربية دون غيرها بقيت للعالم المقولات ٥ ، ٦ ، ٧ من **المخروطات** لأپولونيوس البرجاوى Apollonius of Perga وكتاب **الحيل** لهيرو الإسكندرى وكتاب **الخصائص الآلية للهواء والغازات** لفيلون البيزنطى . ومن أغرب الأشياء أن المسلمين رغم ولعلهم الشديد بالشعر والتاريخ قد أغفلوا الشعر اليونانى والمسرحيات اليونانية وكتب التاريخ اليونانية ، فقد سار المسلمون فى ركاب الفرس فى هذه النواحى من النشاط العلمى والأدبى بدل أن يسيروا فى ركاب اليونان . وكان من سوء حظ الإسلام والإنسانية عامة أن كتب أفلاطون وأرسطو نفسه لم يصل معظمها إلى أيدى المسلمين إلا فى الصورة التى أصبحت عليها أيام الأفلاطونية الحديثة : فقد وصلت إليها كتب أفلاطون كما فسرها پورفيرى Porphyry ، ووصلت كتب أرسطو ممسوخة فى صورة كتاب اللاهوت المعروف عند الإسلاميين بأوثولوچيا أرسطوطاليس ، وقد ألفه رجل من أتباع الأفلاطونية الحديثة عاش فى القرن الخامس أو السادس ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية على أنه كتاب أرسطو نفسه . ولم يكد العرب يتركون كتاباً من كتب أرسطو وأفلاطون إلا ترجموه إلى اللغة العربية ، وإن كانت هذه التراجم غير دقيقة فى كثير من المواضع ؛ ولكن العلماء المسلمين حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة اليونانية والقرآن ، ولجأوا إلى الشروح التى كتبها رجال الأفلاطونية الحديثة أكثر مما لجأوا إلى كتب الفلاسفة اليونان فى صورتها الأصلية . ولهذا لم يصل من كتب أرسطو

الحقة إلى أيدى المسلمين إلا ما كان منها فى المنطق وعلم الطبيعة .

وإن انتقال العلوم والفلسفة انتقالا مستمراً من مصر ، والهند ، وبابل ، عن طريق بلاد اليونان وبيزنطية ، إلى بلاد الإسلام فى الشرق وفى أسپانيا ، ومنها إلى شمالى أوربا وأمريكا ، نقول إن هذا الانتقال لمن أجل الحوادث وأعظمها شأنا فى تاريخ العالم . لقد كانت علوم اليونان حية فى بلاد الشام حين أقبل عليها العرب فاتحين ، وإن كانت هذه العلوم قد ضعف شأنها بسبب ما اكتنفها قبلئذ من غموض وما ساد البلاد من فقر وفساد فى الحكم . وكان الراهب سڤيرس سبخت Severus Sobokht رئيس دير قنسرين إحدى مدن أعالى الفرات يكتب باليونانية رسائل فى الفلك ، ويذكر لأول مرة الأرقام الهندية فى خارج بلاد الهند . (٦٦٢) . لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين ، وتأتى الهند فى هذا فى المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان . فى عام ٧٧٣ أمر المنصور بترجمة **السدهنتا** وهى رسائل هندية فى علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام ٤٢٥ ق . م . وربما كانت هذه الرسائل هى الوسيلة التى وصلت بها الأرقام « العربية »(*) والصفر من بلاد الهند إلى بلاد الإسلام(٢١) . فى عام ٨١٣ استخدم الخوارزمى الأرقام الهندية فى جداوله الرياضية ؛ ثم نشر فى عام ٨٢٥ رسالة تعرف فى اللاتينيه باسم « Algoritmi de numero Indorum أى الخوارزمى عن أرقام الهنود » . وما لبث لفظ الجورثم أو الجورسم أن أصبح معناه طريقة حسابية تقوم على العدّية العشرية . وفى عام ٩٧٦ قال محمد بن أحمد فى *مفاتيح العلوم* إنه إذا لم يظهر فى العمليات الحسابية رقم فى مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة لمساواة الصفوف(٢٢) . وسمى المسلمون هذه الدائرة « صفراً »

(*) يسمى الإفرنج هذه الأرقام بالعربية لأنهم أخذوها من العرب ولكن العرب أنفسهم يسمونها بالأرقام الهندية لأنهم أخذوها عن الهنود . (المترجم)

أى خالية ومنها اشتقت الكلمة الإنجليزية Cipher ؛ وحور العلماء اللاتين لفظ صفر Sifr إلى Zephyrum ثم اختصره الطليان إلى Zero .

ويدين علم الجبر ، الذى نجد أصوله فى مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليونانى من رجال القرن الثالث ، باسمه إلى العرب ، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشف للخبايا الحلال للمعضلات . وأبرز الشخصيات فى هذا الميدان العلمى هى شخصية محمد بن موسى (٧٨٠ — ٨٥٠) المعروف بالخوارزمى نسبة إلى مسقط رأسه فى خوارزم (خيوة الحديثة) الواقعة شرقى بحر الخزر ، وقد كتب الخوارزمى رسائل قيمة فى علوم خمسة : كتب عن الأرقام الهندية ، وجمع أزياجاً فلكية ، ظلت قروناً كثيرة بعد أن روجعت فى بلاد الأندلس الإسلامية هى المعمول بها فى جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان فى الصين ؛ وهو الذى وضع أقدم الجداول المعروفة فى حساب المثلثات ، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء فى وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون ، وأورد فى كتابه **حساب الجبر والمقابلة** حلولا تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية . ولقد ضاع الأصل العربى لهذا الكتاب ، لكن جرارد الكريمونائى Gerard of Cremona ترجمه فى القرن الثانى عشر ، وظلت ترجمته تدرس فى الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر ، ومنه أخذ الغرب كلمة **الجبر** وسموا بها ذلك العلم المعروف . واشتهر ثابت بن قرة (٨٢٦ — ٩٠١) ، فضلا عما ترجمه من الكتب الكثيرة ، بمؤلفاته فى الفلك والطب ، وأصبح أعظم علماء الهندسة المسلمين . وارتقى أبو عبد الله البتانى (٨٥٠ — ٩٢٩) وهو رجل صابئى من الرقة يعرف عند الأوربيين باسم البتجنس Albategnus ، بعلم حساب المثلثات إلى أبعد من مبادئه التى كان عليها فى أيام هپارخوس وبطلميوس ، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات فى حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس كما كان يفعل هپارخوس . وهو الذى صاغ

حساب المثلثات النسب بالصورة التى نستخدمها الآن فى جوهرها .

واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد ، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكى ، ويدرسوا كلف الشمس . واتخذوا كرية الأرض أساساً بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار فى وقت واحد . وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلا وثلثى ميل — وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا فى الوقت الحاضر . ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل . ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئاً إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب العلمية ، وكانوا يسيرون فى بحوثهم على قواعد علمية خالصة ، وكتب أحدهم — الفرغانى من أهل فرغانة وهى ولا يةوراء جيحون (حوالى عام ٨٦٠) — كتاباً فى الفلك ظل مرجعاً تعتمد عليه أوربا وغربى آسية سبعمائة عام . وأوسع منه شهرة البتانى الذى ظل واحداً وأربعين عاماً يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت بدقتها واتساع مداها . وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من « المعاملات » الفلكية تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام — منها تقديره زيوح الاعتدالين(*) بـ ٥ر٥٤° فى العام ، وميل مستوى الفلك بـ ٥٥° ٢٣° (٢٣) . ومنهم أبو الوفا الذى كان يعمل تحت رعاية سلاطين بنى بويه الأولين حكام بغداد والذى كشف (كما يقول سادلو Sadilot وإن كان قوله لا يزال مثاراً للجدل) الانحراف الثالث للقمر قبل أن يكشفه تيخو براهى Tycho Brahe بستمائة عام(٢٤) . وقد أقيمت للفلكيين المسلمين آلات غالية الثمن لم تقتصر على الاسطرلاب ، والكرات ذوات الحلق التى كانت معروفة لليونان الأقدمين ، بل كانت تشمل كذلك آلات لقياس الزوايا يبلغ نصف قطرها ثلاثين قدما ، وآلات سدس نصف قطرها ثمانون قدما . وقد أدخل المسلمون على الاسطرلاب تحسينات كثيرة ،

(*) Procession of the Equinoxes

ووصل منهم إلى أوربا فى القرن العاشر الميلادى ، وظل شائع الاستعمال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر . وقد صوره العرب وأبدعوا صنعه ، حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية معاً .

وهذا الاهتمام العظيم بتصوير السماء قد فاقه اهتمامه بتصوير أقاليم الأرض لأن المسلمين كانوا يعيشون على فلح الأرض وعلى التجارة فى أقاليمها المختلفة . فقد حمل سليمان التاجر — الذى عاش حوالى عام ٨٤٠ سلعه إلى بلاد الشرق الأقصى ، وكتب أحد المؤرخين غير المعروفين (٨٥١) وصفاً لرحلة سليمان هذا ، كان هو أقدم وصف عربى لبلاد الصين ، وكتبه قبل رحلات ماركو پولو Marco Polo بأربعمائة وخمسة وعشرين عاما . وفى ذلك القرن نفسه كتب ابن خردذبه وصفاً لبلاد الهند ، وسيلان ، وجزائر الهند الشرقية ، وبلاد الصين ، ويبدو أنه اعتمد فيما كتب على رحلاته فى تلك البلاد وما شاهده فيها بنفسه . ووصف ابن حوقل بلاد الهند وإفريقية ، وكتب أحمد اليعقوبى ، من أهل أرمينية وخراسان فى عام ٨٩١ كتاب البلدان الذى وصف فيه الأقطار والمدن الإسلامية وكثيراً من الدول الأجنبية وصفاً خليقاً بالثقة . وزار محمد المقدسى جميع البلاد الإسلامية فضلا عن بلاد الأندلس ، ولاقى فى أثناء رحلاته كثيراً من الشدائد ، ثم كتب عام ٩٨٥ كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، وهو أعظم كتاب فى جغرافية البلاد الإسلامية قبل كتاب البيرونى عن الهند :

ويمثل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٩٧٣— ١٠٤٨) العالم الإسلامى فى أحسن صورة له . فقد كان البيرونى فيلسوفا ، ومؤرخاً ، ورحالة ، وجغرافياً ، ولغوياً ، ورياضياً ، وفلكياً ، وشاعرا ، وعالماً فى الطبيعيات — وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة فى كل ميدان من هذه الميادين . وكان عند المسلمين كما كان ليبنتز ، ويوشك أن يكون كما كان ليوناردو داڤنشى ، عند

الغربيين : وقد ولد كما ولد الخوارزمى بالقرب من مدينة جنوى الحالية ، وتمثل فيه كما تمثل فى الخوارزمى زعامة موطنه فى غرب بحر قزوين من الناحية العلمية فى هذه الأعوام المائة من العصور الوسطى التى بلغ فيها العلم ذروته . وعرف أمراء خوارزم وطبارستان فضله وأدركوا عظم مواهبه فأفردوا له مكاناً فى بلاطهم . وسمع محمود الغزنوى بكثرة من كان فى خوارزم من الشعراء والفلاسفة ، فطلب إلى أميرها أن يبعث إليه بالبيرونى ، وابن سينا ، وغيرهما من العلماء ؛ وأدرك الأمير أن هذا أمر واجب الطاعة (١٠١٨) ، وسافر البيرونى ليحيا حياة الجد والهدوء والعزة والكرامة فى بلاد المليك المحارب فاتح الهند . ولعل البيرونى قد دخل الهند فى ركاب محمود نفسه ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد أقام العالم الفيلسوف فى الهند عدة سنين درس فيها لغة البلاد وآثارها القديمة ، ثم عاد إلى بلاط محمود وأصبح فيه من أعظم المقربين لهذا الحاكم المطلق الذى لا يستطيع الكاتب رسم صورة صادقة له . ويقال إن رجلا من شمالى آسية زار محموداً ووصف له إقليما ادعى أنه رآه بعينه ، وقال إن الشمس تظل فيه عدة أشهر لا تغيب أبداً . ولم يصدق محمود هذا القول ، وغضب على الرجل وأوشك أن يزجه فى السجن لجرأته على المزاح معه وهو صاحب الحول والطول ، فما كان من البيرونى إلا أن شرح هذه الظاهرة شرحا أقنع به الملك وأنجى الزائر(٣٦) . وكان مسعود بن محمود من الهواة المولعين بالعلم فأخذ ينفح البيرونى بالهدايا والأموال ، وكثيراً ما كان البيرونى نفسه يردها إلى بيت المال لزيادتها على حاجته .

وكان أول مؤلفاته الكبرى رسالة علمية فنية عميقة تعرف باسم **الآثار الباقية** فى التقاويم والأعياد عند الفرس ، وأهل الشام ، واليونان ، واليهود ، والمسيحيين ، والصابئين ، والزردشتيين ، والعرب . والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة ، مبرأة إلى أقصى حد من الأحقاد الدينية . وكان البيرونى يميل إلى مذهب الشيعة ، وكان ذا نزعة متشككة خالية من المباهاة والادعاء ؛ غير أنه ظل يحتفظ

بقسط من الوطنية الفارسية ، وأنحى باللائمة على العرب لقضائهم على ما كان فى العهد الساسانى من حضارة عظيمة[٢٧] . أما فيما عدا هذا فقد كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية ، المجد فى البحث العلمى ، النقادة للروايات المتواترة والنصوص (بما فيها نصوص الإنجيل) ، المدقق ، النزيه ، ذى الضمير الحى فى أحكامه ، وكثيراً ما كان يعترف بجهله ، ويعد بأن يواصل بحوثه حتى تنكشف له الحقيقة . وقد قال فى مقدمة الآثار الباقية مثل ما قال فرانسس بيكن فى بعض كتبه « ... بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة ، والتعصب ، والتظافر ، واتباع الهوى ، والتغلب بالرياسة ، وأشباه ذلك ..... وبغير ذلك ، لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد » .

وبينا كان مضيفه يغزو الهند ويدمر مدنها ، كان البيرونى يقضى السنين الطوال فى دراسة شعوبها ، ولغاتهم ، وأديانهم ، وثقافتهم ، ومختلف طوائفهم . وأثمرت هذه الدراسة كتابه تاريخ الهند الذى نشره فى عام ١٠٣٠ والذى يعد أعظم مؤلفاته . وقد ميز فيه منذ البداية بين ما شاهده بعينه وما سمعه من غيره ، وذكر أنواع الكذابين الذين ألفوا كتباً فى التاريخ[٢٨] . ولم يخص تاريخ الهند السياسى إلا بحيز صغير فى كتابه ولكنه خص أحوال الهند الفلكية باثنين وأربعين فصلا من فصوله وخص أديانها بأحد عشر . وكان من أهم ما سحر لبه البهاجافاد جيتا وأدرك ما بين تصوف الفدانتا ، والصوفية ، والفيثاغورية الحديثة ، والأفلاطونية الحديثة من تشابه . وأورد مقتطفات من كتابات مفكرى الهنود ، ووازن بينها وبين مقتطفات شبيهة بها من كتابات فلاسفة اليونان ، وفضل آراء اليونان عن آراء الهنود ، وكتب يقول إن الهند لم ينبغ فيها رجل كسقراط ، ولم تظهر فيها طريقة منطقية تطهر العلم من الأوهام[٢٩] . ولكنه رغم هذا ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية ، وكأنما أراد أن يوفى بدينه للهند

فترجم إلى السنسكريتية كتاب **أصول الهندسة** لإقليدس و **المجسطى** لبطليموس .

وكادت عنايته تشمل جميع العلوم ، فقد كتب عن الأرقام الهندية أوفى بحث فى العصور الوسطى ؛ وكتب رسالة عن الاسطرلاب ، ودائرة فلك البروج ، وذات الحلق ، ووضع أزياجا فلكية للسلطان محمود . ولم يكن يخالجه أدنى شك فى كرية الأرض ، ولاحظ أن كل الأشياء تنجذب نحو مركزها ، وقال إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض تدور حول محورها مرة فى كل يوم ، وحول الشمس مرة فى كل عام ، بنفس السهولة التى تفسر بها إذا افترضنا العكس(٣٠) . وقال إن وادى نهر السند ربما كان فى وقت من الأوقات قاع بحر(٣١) ، وألف كتاباً ضخما فى الحجارة وصف فيه عدداً عظيما من الأحجار والمعادن من النواحى الطبيعية وشرح قيمتها التجارية والطبية . وعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعا من أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التى تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذى يزيغه(٣٢) . وتوصل إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف العدد دون الالتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة ، كما تحدث فى القصة الهندية عن مربعات لوحة الشطرنج وحبات الرمل . ووضع فى الهندسة حلولا لنظريات سميت فيما بعد باسمه . وألف موسوعة فى الفلك ، والتنجيم ، والعلوم الرياضية ؛ وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية بنظرية الأوانى المستطرقة(٣٣) . وألف تواريخ حكم السلطان محمود ، وسبكتجين ، وتاريخا لخوارزم . ويطلق عليه المؤرخون الشرقيون اسم الشيخ ، وكأنهم يعنون بذلك أنه شيخ العلماء . وإن كثرة مؤلفاته فى الجيل الذى ظهر فيه ابن سينا ، وابن الهيثم ، والفردوسى لتدل على أن الفترة الواقعة فى أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر هى التى بلغت فيها الثقافة الإسلامية ذروتها ، وهى التى وصل فيها الفكر فى العصور الوسطى إلى أعلى درجاته .

ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم ؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية ، والعناية برصد نتائجها فى الميدان الذى اقتصر فيه اليونان — على ما نعلم — على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة . فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الاسم ، وحللوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلا كيميائياً ، ووضعوا مؤلفات فى الحجارة ، وميزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التى تميل إليها ، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية ، وركبوا مئآت منها(*) . وكان علم تحويل المعادن إلى ذهب ، الذى أخذه المسلمون من مصر هو الذى أوصلهم إلى علم الكيمياء الحق ، عن طريق مئات الكشوف التى تبينوها مصادفة ، وبفضل الطريقة التى جروا عليها فى اشتغالهم بهذا العلم وهى أكثر طرق العصور الوسطى انطباقاً على الوسائل العلمية الصحيحة . ويكاد المشتغلون بالعلوم الطبيعية من المسلمين فى ذلك الوقت يجمعون على أن المعادن كلها تكاد ترجع فى نهاية أمرها إلى أصول واحدة ، وأنها لهذا السبب يمكن تحويل بعضها إلى البعض الآخر . وكان الهدف الذى يبغيه الكيميائيون هو أن يحولوا المعادن « الخسيسة » كالحديد ، أو النحاس ، أو الرصاص ، أو القصدير إلى فضة ، أو ذهب . وكان حجر الفلاسفة عندهم مادة — يدأبون على البحث عنها ولا يصلون إليها — إذا عولجت بها تلك المعادن العلاج الصحيح ، حدث فيها التغير المطلوب . وكان الدم ، والشعر ، والبراز ، وغيرها من المواد تعالج « بكواشف » متنوعة ، وتعرض لعمليات التكليس ، والتصعيد ، وللضوء ، والنار ، علها أن يكون فيها ذلك الإكسير السحرى(٣٦) . وكان الاعتقاد السائد أن الذى يستحوذ على هذا الإكسير يستطيع إذا شاء أن

(*) الكحول كلمة عربية ولكن هذه المادة ليست من مخترعات العرب . وقد ذكر أول ما ذكر فى مؤلف إيطالى ظهر فى القرن التاسع أو العاشر(٣٥) الميلادى ، وكان الكحل عند المسلمين مسحوقاً تطلى به الحواجب .

يطيل حياته : وكان أشهر الكيميائيين المسلمين جابر بن حيان (٧٠٢ — ٧٦٥) المعروف عند الأوربيين باسم جبير Gebir . وكان جابر ابن عقار كوفى ، اشتغل بالطب ، ولكنه كان يقضى معظم وقته مع الأنابيق والبوادق . ويعزو إليه المؤرخون مائة من المؤلفات أو أكثر من مائة ، ولكنها فى الواقع من عمل مؤلفين مجهولين عاش معظمهم فى القرن العاشر : وقد ترجم كثير من هذه المؤلفات التى لا يعرف أصحابها إلى اللغة اللاتينية وكان لها الفضل فى تقدم علم الكيمياء فى أوربا : وحل السحر بعد القرن العاشر محل الكيمياء كما حل محل غيرها من العلوم ، وقضى ذلك العلم بعدئذ ثلثمائة عام لا يرفع فيها رأسه .

وليس لدينا إلا القليل من بقايا علم الأحياء عند المسلمين فى ذلك العصر . ومن هذه الآثار **كتاب النبات** لأبى حنيفة الدينورى الذى رجع فيه إلى مؤلفات ديوسقوريدس ولكنه أضاف فيه إلى علم الصيدلة عقاقير أخرى كثيرة . وقد عرف علماء الأحياء المسلمون طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق التطعيم ، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز ، وأوجدوا بذلك التطعيم أزهاراً نادرة جميلة المنظر[٣٧] . وشرح عثمان بن عمر الجاحظ (المتوفى سنة ٨٦٩) نظرية فى التطور شبيهة بنظرية المسعودى فقال إن الحياة قد ارتقت من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ثم من الحيوان إلى الإنسان[٣٨] . واعتنق الشاعر الصوفى جلال الدين هذه النظرية ، ولم يضف إليها إلا قوله إنه إذا كان هذا مستطاعاً فى الماضى ، فإن الناس فى المرحلة الثانية سيصبحون ملائكة ثم يرقون إلى مرتبة الإله[٣٩] .

الفصل الثالث

الطب

وما فتئ الناس فى هذه الأثناء يحبون الحياة ، وينفقون الأموال الطائلة فى تأخير ساعة الموت ، وإن كانوا دائمى الافتراء عليها والتنديد بها . ولم يكن العرب حين دخلوا بلاد الشام يعرفون من الطب إلا معلومات بدائية ، ولم يكن لديهم من الأدوات والأجهزة الطبية إلا القليل الذى لا يغنى . فلما أن ازدادت الثروة نشأت فى الشام وفارس طائفة من الأطباء ، واسعة العلم ، عظيمة المقدرة ، أو استقدمت من بلاد اليونان والهند . . وإذ كان المسلمون يستنكفون من تشريح الأجسام الحية أو جثث الموتى فإن علم التشريح عند المسلمين قد اقتصر على ما جاء فى كتب جالينوس ، أو على دراسة الجرحى من الناس ؛ ومن أجل هذا كان أضعف فروع الطب الإسلامى هو الجراحة ، وكان أقواها هو الطب العلاجى وخواص العقاقير الطبية . وقد أضاف العرب إلى علم الأقرباذين العنبر ، والكافور ، وخيار الشنبر ، والقرنفل العطرى ، والزئبق ، والسنامكى ، والمر ، وأدخلوا فى الأدوية مستحضرات طبية جديدة — منها أنواع الشراب ، والجلاب ، وماء الورد وما إليها . وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استيراد العقاقير العربية . وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات ، وهم الذين أنشأوا أول مدرسة للصيدلة ، وكتبوا الرسائل العظيمة فى علم الأقرباذين . وكان الأطباء المسلمون عظيمى التحمس فى دعوتهم إلى الاستحمام ، وخاصة عند الإصابة بالحميات[٤٦] ، وإلى استخدام حمام البخار ؛ ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجدرى والحصبة ؛ وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق فى بعض العمليات الجراحية[٤٧] ؛ واستعانوا بالحشيش وغيره من

المخدرات على النوم العميق(٣) ؛ ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيمارستانا كانت قائمة فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت(٤٤) ، ويلوح أنها أنشئت على نمط المجمع العلمى والمستشفى الفارسى الذى كان فى جنديسابور ؛ وأنشئ أول بيمارستان معروف لنا فى بغداد فى أيام هرون الرشيد ، ثم أنشئت فيها خمسة أخرى فى القرن العاشر الميلادى ؛ ويحدثنا المؤرخون فى عام ٩١٨ عن مدير لها فى بغداد(٤٥) . وكان أعظم بيمارستانات بلاد الإسلام على بكرة أبيها هو البيمارستان الذى أنشئ دمشق عام ٧٠٦ ؛ وفى عام ٩٧٨ كان به أربعة وعشرون طبيباً . وكانت البيمارستانات أهم الأماكن التى يدرس فيها الطب ؛ ولم يكن القانون يجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ونال إجازة من الدولة . كذلك كان الصيادلة ، والحلاقون ، والمجبرون يخضعون لأنظمة تضعها الدولة وللتفتيش على أعمالهم . وقد نظم على ابن عيسى الوزير — الطبيب — هيئة من الأطباء الموظفين يطوفون فى مختلف البلاد ليعالجوا المرضى (٩٣١) ؛ وكان أطباء يذهبون فى كل يوم إلى السجون ليعالجوا نزلاءها ؛ وكان المصابون بأمراض عقلية يلقون عناية خاصة ويعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية . غير أن الوسائل الصحية العامة لم تلق فى معظم الأماكن ما هى خليقة به من العناية ، ودليلنا على ذلك أن أربعين وباء اجتاحت فى أربعة قرون هذا البلد أو ذاك من بلاد الإسلام .

وكان فى بغداد وحدها عام ٩٣١ ثمانمائة وستون طبيباً مرخصاً(٤٦) . وكانت أجورهم ترتفع بنسبة قربهم من بلاط الخلفاء . فقد جمع جبريل بن بختيشوع طبيب هرون الرشيد ، والمأمون ، والبرامكة ثروة يبلغ مقدارها ٨٨٫٨٠٠٫٠٠٠ درهم أى نحو ٧٫١٠٤٫٠٠٠ دولار أمريكى) ؛ ويحدثنا المؤرخون أنه كان يتقاضى من الخليفة مائة ألف درهم نظير حجامته مرتين فى العام ، ومثل هذا المبلغ لإعطائه مسهلا كل نصف عام(٤٧) . وقد نجح فى علاج الشلل الهستيرى فى جارية

بأن تظاهر بأنه سيخلع عنها ملابسها أمام الناس . وجاء بعد جبريل فى بلاد الإسلام الشرقية عدد من الأطباء كل منهم بعد الآخر ، نذكر منهم يوحنا ابن ماسويه (٧٧٧ — ٨٥٧) ، الذى درس التشريح بتقطيع أجسام القردة ، ومنهم حنين بن إسحاق ، المترجم ، صاحب كتاب **العشر مقالات فى العين** ، وهو أقدم كتاب دراسى منظم فى طب العيون ؛ وعلى بن عيسى أعظم أطباء العيون المسلمين ، وقد ظل كتابه **تذكرة الكحالين** يدرس فى أوربا حتى القرن الثامن عشر .

وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازى (٨٤٤ — ٩٢٦) اشتهر بين الأوربيين باسم رازيس Rhases . وكان أبو بكر كمعظم كبار العلماء والشعراء فى وقته فارسياً يكتب بالعربية . وكان مولده فى بلدة الرى القريبة من طهران ، ودرس الكيمياء بنوعيها ، والطب فى بغداد ، وألف ١٣١ كتاباً نصفها فى الطب ، ضاع معظمها . ومن أشهر كتبه كتاب **الحاوى** وهو كتاب فى عشرين مجلداً ، ويبحث فى كل فرع من فروع الطب . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمى Liber cntinens ، وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة ، وأهم مرجع لهذا العلم فى بلاد الرجل الأبيض ، وكان من الكتب التسعة التى تتألف منها مكتبة الكلية الطبية فى جامعة باريس عام ١٣٩٤[٤٨] . وكانت رسالته فى الجدرى والحصبة آية فى الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق ، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية ، وأول مجهود يبذل للتفرقة بين هذين المرضين . وفى وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامى ١٤٩٨ ، ١٨٦٦ . وأشهر كتب الرازى كلها كتاب طبى فى عشر مجلدات يسمى **كتاب المنصورى**

آهداه إلى أحد أمراء خراسان . وقد ترجمه جرار الكريمونى إلى اللغة اللاتينية . وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم Nonus Almansoris متداولا فى أيدى طلاب الطب فى أوربا حتى القرن السادس عشر . وقد كشف الرازى طرقا جديدة فى العلاج كمرهم الزئبق ، واستخدام أمعاء الحيوان فى التقطيب . وهدأ من تحمس الأطباء لتحليل البول فى عصر أقبل فيه الأطباء على تشخيص كل مرض بالفحص على بول المريض ، دون أن يروه فى بعض الأحيان . ولا تخلو بعض مؤلفاته القصيرة من ظرف ودعابة ؛ ومن هذا النوع رسالته « فى أن الطبيب الحاذق ليس هو من قدر على إبراء جميع العلل وإن ذلك ليس فى الوسع » ورسالته الأخرى « العلة التى من أجلها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء فى المدن فى علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء وعذر الطبيب فى ذلك » . ولقد كان الرازى بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريرى (الكلينيكى) فى العصور الوسطى[٤٩] . ومات الرجل فقيراً فى الثانية والثمانين من عمره .

وقد علقت فى مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان ملونتان لطبيبين مسلمين هما : الرازى وابن سينا . وكان أبو على الحسين بن سينا (٩٨٠–١٠٣٧) أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر أطبائه ، وتشهد سيرته التى كتبها بيده — وذلك النوع من السير نادر فى الأدب العربى — بكثرة ما كان يحدث فى العصور الوسطى من تقلب فى حياة العلماء والحكماء . فقد كان ابن سينا ابن أحد الصيارفة فى بخارى ، وتلقى العلم على معلمين خصوصيين ، كان لهم أثر فيما ينطوى عليه عقله العلمى من نزعة صوفية . ويقول عنه ابن خلكان بشىء من المغالاة المألوفة عند المؤرخين العرب إنه لما بلغ عشر سنين من عمره « كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة »[٥٠] .

وقد تعلم الطب من غير مدرس ، وأخذ وهو شاب يعالج المرضى من غير أجر

وشفى وهو فى السابعة عشرة من عمره نوح بن منصور أمير بخارى من مرضه ، وعين فى منصب فى بلاطه ، وكان يقضى فى الدرس ساعات طوالا فى مكتبة السلطان الضخمة . ولما قضى على سلطان السامانيين فى أواخر القرن العاشر الميلادى لجأ ابن سينا إلى بلاط المأمون أمير خوارزم . ولما استدعى محمود الغزنوى ابن سينا والبيرونى وغيرهما من جهابذة العلماء فى بلاط المأمون ، لم يطع ابن سينا أمره ، وفر هو وزميل له من العلماء إلى الصحراء . وهبت عليهما عاصفة رملية مات فيها زميله ، ونجا ابن سينا ووصل إلى جرجان بعد أن قاسى كثيرا من الصعاب ، وفيها عين فى منصب فى بلاط قابوس . ونشر محمود الغزنوى فى بلاد الفرس صورة لابن سينا ، ووعد من يقبض عليه بجائزة سخية ، ولكن قابوس حماه من عيون الأمير . ولما قتل قابوس دعى ابن سينا لعلاج أمير همذان ، وشفى الأمير على يديه فاتخذه وزيراً له ، ولكن الجيش لم يرتح لحكمه ، فقبض عليه ، ونهب بيته ، وأراد أن يقتله . واستطاع ابن سينا أن يفلت منهم ويختبئ فى بيت صيدلى ، وبدأ وهو فى مخبئه يؤلف كتبه التى كانت سبباً فى شهرته . وبينا هو يدبر لنفسه أمر الفرار سراً من همذان قبض عليه ابن الأمير وزج به فى السجن حيث قضى عدة أشهر واصل فيها التأليف . واستطاع مرة أخرى أن يفر من السجن ، وتخفى فى زى أحد رجال الطرق الصوفية ، وبعد عدة مغامرات لا تتسع لها صحائف هذا الكتاب وجد له ملجأ فى بلاط علاء الدولة البويهى أمير إصفهان ، ورحب به الأمير وكرمه ، وهنا التف حوله جماعة من العلماء والفلاسفة وأخذوا يعقدون مجالس علمية برياسة الأمير نفسه . ويستدل من بعض القصص التى وصلت إلينا أن فيلسوفنا كان يستمتع بملاذ الحب ، كما يستمتع بملاذ الدرس . غير أن قصصاً تصوره لنا مكباً بالليل والنهار على الدرس ، والتعليم ، والشئون العامة ، وينقل لنا ، ابن خلكان نصائح له قيمة لا تبلى جدتها :

اجعل غذاءك كل يوم مرة واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فإنه ماء الحياة يراق فى الأرحام

وأثرت حياة الكدح فى صحته فمات فى السابعة والخمسين من عمره وهو مسافر إلى همذان ، حيث لا يزال قبره موضعاً للإجلال والتكريم .

ولقد وجد ابن سينا فى صروف حياته ، فى مناصبه أو فى سجنه ، متسعاً من الوقت لتأليف مائة كتاب بالفارسية أو العربية تحدث فيها عن كل فرع تقريبا من فروع العلم والفلسفة . هذا إلى أن له قصائد من الشعر الجيد وصلت إلينا منها خمس عشرة قصيدة انزلقت واحدة منها إلى رباعيات عمر الخيام ، ومنها قصيدته العينية فى النفس وهبوطها إلى الجسم من عالم علوى ومطلعها :

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع(*)

ولا يزال الطلاب فى بلاد الشرق الإسلامى حتى اليوم يحفظونها عن ظهر قلب . وقد ترجم كتاب إقليدس فى الهندسة ووضع عدة أزياج فلكية ، وابتكر آلة شبيهة بالورنية المعروفة عندنا اليوم . وله دراسات مبتكرة فى الحركة ، والطاقة ، والفراغ ، والضوء ، والحرارة ، والكثافة النوعية . وله رسالة فى المعادن بقيت حتى القرن الثالث عشر أهم مصادر علم طبقات الأرض عند الأوربيين . وقد كتب فيها عن تكوين الجبال كتابة تعد أنموذجا للوضوح فى العلم . فقد قال إن الجبال قد تنشأ من سببين مختلفين : فقد تكون نتيجة اضطرابات فى القشرة الأرضية كما يحدث فى أثناء الزلازل العنيفة ، وقد تكون نتيجة لفعل المياه التى تشق لنفسها طريقا جديدا بنحت الأودية . ذلك أن طبقات الأرض مختلفة فى أنواعها ؛ فمنها الهش ومنها الصلب ، والرياح والمياه تفتتان النوع الأول

(*) ومنها :

محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع

لكنهما تتركان صخور النوع الثانى على حالها . وهذا التحول يحتاج إلى آجال طوال . . . ولكن وجود البقايا المتحجرة للحيوانات المائية فى كثير من الجبال يدل على أن المياه هى أهم الأسباب التى أحدثت هذه النتائج(٥٢).

ولابن سينا كتابان يشتملان على تعاليمه كلها أولهما **كتاب الشفاء** (شفاء النفس) ، وهو موسوعة فى ثمانية عشر مجلداً فى العلوم الرياضية ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وعلوم الدين ، والاقتصاد ، والسياسة ، والموسيقى ؛ وثانيهما كتاب **القانون فى الطب** ، وهو بحث ضخم فى وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، والعلاج ، والأقرباذين ، يتطرق من حين إلى حين إلى الموضوعات الفلسفية . وكتاب القانون حسن التنسيق يرقى فى بعض الأحيان إلى درجة كبيرة فى البلاغة ، ولكن شغفه الشديد بالتصنيف والتميز يصبح عنده آفة لا يجد لها الرئيس دواء . ويبدأ المؤلف بتحذير لا يشجع على دراسته إذ يقول إن كل من يتبع تعاليمه ويريد أن يفيد منها يجب عليه أن يحفظ عن ظاهر قلب(١٥٣) هذا الكتاب الذى يحتوى ألف ألف كلمة . والطب فى رأيه هو فن إزالة العقبات التى تعترض طريق عمل الطبيعة السوى . وهو يبحث أولا فى الأمراض الخطيرة فيصف أعراضها ، وتشخيصها ، وطرق علاجها . وفى الكتاب فصول عن طرق الوقاية والوسائل الصحية العامة والخاصة ، والعلاج بالحقن الشرجية ، والحجامة ، والكى ، والاستحمام ، والتدليك . وهو ينصح بالتنفس العميق ، وبالصياح من حين إلى حين لتقوية الرئتين والصدر — واللهاة . ويلخص الكتاب الثانى ما عرفه اليونان والعرب عن النباتات الطبية . ويبحث الكتاب الثالث فى بعض الأمراض وطبائعها ، وفيه بحوث قيمة ممتازة عن التهاب البلورا والدُّبيلة(*) ، والنزلات المعوية ، والأمراض التناسلية ، وفساد الشهوة ، والأمراض العصبية ، بما فيها العشق ،

(*) هذا هو الاسم الذى يطلقه ابن سينا على هذا المرض ويسميه أبو القاسم الزهراوى الذبيلة بالذال المنقوطة وهو معروف بالأمپييما أى تجمع الصديد فى جوف البلورا . (المترجم)

ويبحث الكتاب الرابع فى الحميات ، وفى الجراحة ، وأدهان التجميل ، ووسائل العناية بالشعر والجلد . وفى الكتاب الرابع — الخاص بعلم العقاقير الطبية — تعليمات مفصلة عن طرق طبخ سبعمائة وستين نوعاً من العقاقير . وحل كتاب القانون بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر محل كتب الرازى وجالينوس ، وأصبح هو الذى يعتمد عليه فى دراسة الطب فى المدارس الأوربية . وقد احتفظ فيها بمكانته العالية ، وظل الأساتذة يشيرون على الطلاب بالرجوع إليه فى جامعتى منپلييه ولوڤان إلى أواسط القرن السابع عشر .

وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب فى الطب فى العصور الوسطى ، وأن الرازى أعظم أطبائها ، والبيرونى أعظم الجغرافيين فيها ، وابن الهيثم أعظم علمائها فى البصريات ، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها . تلك أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحى فى الوقت الحاضر إلا القليل ، وإن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا فى معرفة تاريخ العصور الوسطى ؛ وليس فى وسعنا مع هذا أن نحاجز أنفسنا عن القول بأن العلوم العربية كثيراً ما تلوثت بالأوهام شأنها فى هذا شأن سائر العصور الوسطى ، وأن تفوقها كلها — عدا علم البصريات — يرجع إلى التركيب والبناء من النتائج التى تجمعت لديها أكثر من تفوقها فى الكشوف المبتكرة أو البحوث المنظمة ؛ لكنها مهما يكن قصورها فى هذه الناحية قد نمت فى علم الكيمياء الطريقة التجريبية العلمية ، وهى أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره . ولما أن أعلن روجر بيكن هذه الطريقة إلى أوربا بعد أن أعلنها جابر بخمسمائة عام كان الذى هداه إليها هو النور الذى أضاء له السبيل من عرب الأندلس ، وليس هذا الضياء نفسه إلا قبساً من نور المسلمين فى الشرق .

الفصل الرابع

الفلسفة

لقد استعار الإسلام فى الفلسفة ، كما استعار فى الطب ، من بلاد الشام المسيحية ما خلفته بلاد اليونان الوثنية ، ثم رد هذا الدين إلى أوربا المسيحية عن طريق الأندلس الإسلامية . وكانت هناك بطبيعة الحال عوامل كثيرة هى التى أدت مجتمعة إلى ثورة المعتزلة ، وإلى فلسفات الكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد . فقد جاءت أفكار الهند إلى بلاد الإسلام عن طريق غزنة وفارس ، وكان للآراء الزردشتية واليهودية عن الحشر والحساب بعض الأثر فى الفلسفة الإسلامية ؛ وكان الملاحدة المسيحيون قد أثاروا عجاج الجدل فى بلاد الشرق الأدنى فى صفات الله ، وفى طبيعة المسيح وكلمة الله ، وفى الجبرية والقدرية ، والوحى والعقل . لكن العامل الذى كان له أكبر الأثر فى التفكير الإسلامى فى آسية — كما كان له أكبر الأثر فى إيطاليا أيام النهضة — هو كشف آثار اليونان الفكرية من جديد ؛ فقد أدى هذا الكشف — وإن أتى عن طريق التراجم الناقصة المعيبة لنصوص مشكوك فى صحتها — إلى ظهور عالم جديد : عالم كان الناس يفكرون فيه فى كل شىء ولا يخشون أن يصيبهم أذى بسبب هـذا التفكير ، ولا تقيد عقولهم نصوص الكتب المقدسة ، ولا يرون أن السماء والأرض وما بينهما قد خلقت عبثاً(*) أو أنها وجدت بمعجزة من المعجزات التى لا تستند إلى قانون من قوانين العقـل ، بل يرون أنها تستند إلى قانون عام عظيم

(*) لم يكن هذا التفكير مقصوراً على اليونان وحدهم ، بل قد جاء به القرآن نفسه فى عدة آيات : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » : سورة الأنبياء : ١٦ ؛ وسورة ص : ٢٧ وسورة الحجر : ٨٥ ؛ وسورة الدخان : ٣٨ .

يحكمها جميعاً وتتضح آثاره فى كل جزء من أجزاء الكون . وقد افتتن المسلمون بالمنطق اليونانى فى صورته الكاملة الواضحة التى جاء بها كتاب **أورغانون** (**الآلة الفكرية**) لأرسطو وبعد أن أتيح لهم الفراغ الذى لا بد منه للتفكير ، ووجدوا فيه الأدوات التى يحتاجونها لتفكيرهم ؛ وظل المسلمون ثلاثة قرون طوال يحاجون بالمنطق وتسلب لبهم بهجة الفلسفة المحببة كما سلبت لب الشباب فى أيام أفلاطون . وسرعان ما أخذ صرح العقائد التعسفية يتصدع وينهار ، كما انهارت العقائد اليونانية بتأثير بلاغة السوفسطائيين ، وكما ضعفت العقائد المسيحية وتزعزعت قواعدها تحت ضربات أصحاب الموسوعات الفرنسيين وسخرية ڤلتير اللاذعة .

وكانت البداية التقريبية للعهد الذى نستطيع أن نسميه عهد الاستنارة الإسلامية هى الجدل الذى ثار حول موضوع عجيب هو موضوع خلق القرآن . ذلك أن عقيدة فيلون فى الكلمة وقوله إنها هى حكمة الله الأبدية ، وما جاء به الإنجيل الرابع من أن المسيح هو كلمة الله أو العقل القدسى : « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان فى البدء عند الله ، كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان »(٥٣) ، وعقيدة المسيحيين العارفين(*) وأتباع الأفلاطونية الحديثة الذين يجسدون الحكمة الإلهية ويقولون إنها هى أداة الخلق الفعالة ، وعقيدة اليهود فى أزلية التوراة — كل هذه الآراء قد أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة مماثلة تقول إن القرآن كان على الدوام موجوداً فى عقل الله ، وإن نزوله على محمد كان هو دون غيره حادثاً فى زمان معين ، وكانت نشأة الفلسفة فى الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن ، وهم يجهرون باحترامهم لكتاب الله (الكريم) ولكنهم يقولون إنه إذا تعارض هو

(*) القائلين بأن الخلاص بالمعرفة لا بالإيمان . (المترجم)

أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسيراً حرفياً بل مجازياً ، وأطلقوا على هذه الجهود التى يحاولون بها التوفيق بين العقل والدين اسم **الكلام** أى المنطق . وقد بدا لهم أن من السخف أن تؤخذ بحرفيتها العبارات الواردة القرآن والتى تقول إن لله يدين وقدمين ، وإنه يغضب ويكره ، وقالوا إن تشبيه الله بالكائنات البشرية على هذا النحو الشعرى ، إذا كان يتفق مع أغراض النبى الأخلاقية والسياسية فى أيام الرسالة ، لا يمكن أن يقبله المتعلمون المستنيرون فى أيامهم ، وإن العقل البشرى عاجز كل العجز عن معرفة طبيعة الله وصفاته الحقة ، وكل ما يستطيعه أن يقبل ما جاء به الدين من إثبات وجود قوة روحية عليا هى أساس الحقائق عامة . وفضلا عن هذا فقد كان المعتزلة يرون أن من الخطر الشديد على أخلاق الناس وأعمالهم أن يؤمنوا كما يؤمن عامة المسلمين بأن الحادثات كلها مقدرة تقديراً كاملا من عند الله ، وأن الله قد اختار منذ الأزل من سيثاب ومن سيعذب .

وانتشرت عقائد المعتزلة بهذه الصورة وبما أدخل عليها من الصور الأخرى التى يخطئها الحصر أثناء خلافة المنصور ، وهرون الرشيد ، والمأمون ؛ واعتنق هذه المبادئ العقلية الجديدة سراً فى بادىء الأمر عدد من العلماء والخارجين على الدين ، ثم جهر بها رجال فى ندوة الخلفاء المسائية ، ثم وجدت من يدعو إليها فى المحاضرات التى تلقى فى المدارس والمساجد ، بل تغلبت فى أماكن متفرقة على غيرها من الآراء . وافتتن المأمون نفسه بهذه النزعة العقلية الآخذة فى القوة ، وبسط عليها حمايته ، وانتهى الأمر بأن جعل عقائد المعتزلة مذهب الدولة الرسمى . ذلك أن المأمون مزج بعض عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية ، وأصدر فى عام ٨٣٢ أمراً يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خلق فى وقت بعينه ، وأتبع هذا بأمر آخر يقضى بألا يعين قاضياً فى المحاكم من لا يعلن قبوله لهـــذه العقيدة الجديدة أو أن

تقبل فيها شهادته . وصدرت بعد هذين القرارين قرارات أخرى تحتم قبول عقيدة حرية الإرادة ، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأى العين ، وانتهى الأمر بأن جعل رفض هذه العقائد من الجرائم التى يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وتوفى المأمون فى عام ٨٣٣ ولكن المعتصم والواثق اللذين توليا الخلافة بعده واصلا هذه الحملة الفكرية ، وقاوم الإمام ابن حنبل هذا الاضطهاد الفكرى ونددد به ؛ ولما استدعى لمناقشته فى أمر المبادئ الجديدة أجاب عن كل ما وجه إليه من الأسئلة بإيراد شواهد من القرآن تؤيد آراء أهل السنة ، فضرب حتى أغمى عليه ، وألقى فى السجن ، ولكنه أصبح فى أعين المسلمين بسبب هذا التعذيب من الشهداء والأولياء الصالحين ، وكان تعذيبه هذا من العوامل التى مهدت السبيل للانتقاض على الفلسفة الإسلامية .

وكانت هذه الفلسفة قد أخرجت فى ذلك الوقت أول داع كبير لها وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الذى ولد فى الكوفة عام ٨٠٣ م . وكان والد الكندى من ولاة الأعمال فى المدينة ؛ وتلقى هو العلم فيها وفى بغداد ، وذاعت شهرته فى الترجمة ، والعلم والفلسفة فى بلاط المأمون والمعتصم ، ونبغ مثل الكثيرين من أمثاله فى مجد الإسلام الفكرى فى عدد كبير من العلوم ، فدرس كل شىء ، وكتب ٢٦٥ رسالة فى كل شىء — فى الحساب والهندسة النظرية ، والهيئة ، والظواهر الجوية ، وتقويم البلدان ، والطبيعة ، والسياسة ، والموسيقى ، والطب ، والفلسفة . . . وكان يرى ما يراه أفلاطون من أنه ليس فى وسع إنسان أن يصبح فيلسوفاً من غير أن يكون قبل ذلك عالما فى الرياضة ؛ وحاول أن يبنى علم الصحة ، والطب ، والموسيقى على نسب رياضية . وقد درس فيما درس ظاهرة المد والجزر ، وبحث القوانين التى تحدد سرعة الأجسام الساقطة فى الهواء ، كما بحث ظاهرة الضوء فى كتابه عن البصريات الذى كان له أكبر الأثر فى

روجر بيكن Roger Bacon . (وقد أدهش الكندى العالم الإسلامى برسالته فى الدفاع عن المسيحية) [٤٥](*) واشترك هو وزميل له فى ترجمة كتاب أرسطو فى الإلهيات (أو ثولوجيا) . وتأثر الكندى أشد التأثر بهذا الكتاب المنحول وسره كل السرور أنه يوفق بين أرسطو وأفلاطون إذ يجعل كليهما من أتباع الأفلاطونية الجديدة . ذلك أن فلسفة الكندى نفسه هى الأفلاطونية الجديدة مصبوغة صبغة جديدة : فالنفس عنده على ثلاث مراتب : الله ، ونفس العالم الخلاقة ، والنفس البشرية التى هى فيض من هذه النفس الثانية . وإذا استطاع الإنسان أن يدرب نفسه على العلم الحق استطاع أن ينال الحرية والخلود . ويلوح أن الكندى قد حاول ما استطاع أن يبتعد عن آراء المعتزلة وأن يعتنق آراء أهل السنة ، ولكنه أخذ عن أرسطو[٥٦] التفرقة بين العقل الفاعل أى العقل الإلهى ، وعقل الإنسان المنفعل الذى لا يعدو أن يكون هو القدرة على التفكير . ونقل ابن سينا هذا التفريق إلى ابن رشد الذى أثار به العالم واتخذه حجة ضد القائلين بالخلود الفردى . وانتهى الكندى بالانضمام إلى المعتزلة ، فلما قام عليهم أهل السنة صودرت كتبه ، وكاد يقضى على حياته ، ولكنه نجا من هذه العاصفة ، واسترد مكتبته ، وعاش حتى عام ٨٧٣ .

إن المجتمع الذى يرتبط فيه نظام الحكم ، والقانون ، والأخلاق بالعقيدة الدينية يرى فى كل خروج على تلك العقيدة تهديداً خطيراً للنظام الاجتماعى نفسه . ولقد عادت إلى النشاط من جديد جميع القوى التى طغى عليها الفتح العربى

(*) ليس للكندى الفيلسوف رسالة فى الدفاع عن المسيحية . أما كاتب هذه الرسالة فهو عبد المسيح بن إسحق الكندى ، وقد كتبها رداً على رسالة بعث بها إليه عبد الله بن إسماعيل الهاشمى يدعوه فيها إلى الإسلام ، فبعث هو إليه بهذه الرسالة يدعو عبد الله إلى النصرانية . وقد اختلط الأمر على المؤلف لتشابه الاسمين . وقد ورد ذكر الرسالتين فى كتاب الآثار الباقية للبيرونى . (المترجم)

وهى الفلسفة اليونانية والمسيحية الغنوسطية ، والقومية الفارسية ، والشيوعية المزدكية ؛ وكان نشاطها عنيفاً ، فأخذت تجادل فى القرآن ، وجهر شاعر فارسى بأن شعره أعلى منزلة من القرآن نفسه ، فكان جزاؤه على قوله هذا قطع رأسه (٧٨٤)[٥٧] ، وبدا أن صرح الإسلام القائم على القرآن قد أصبح وشيك الانهيار . غير أن عوامل ثلاثة فى هذه الأزمة الشديدة جعلت النصر النهائى لأهل السنة : وهذه العوامل هى وجود خليفة محافظ مستمسك بدينه ، واشتداد ساعد الحرس التركى ، وولاء الناس الطبيعى لعقائدهم الموروثة . فلما أن تولى المتوكل على الله الخلافة فى عام ٨٤٧ استمد العون من الشعب ومن الأتراك . وكان الترك حديثى العهد بالإسلام ، حاقدين على الفرس ، غريبين عن الفكر اليونانى ، فاندفعوا بكل ما فيهم من قوة لتأييد السياسة التى ترمى إلى نصرة الدين بحد السيف . فنقض المتوكل السياسة الحرة العنيفة التى جرى عليها المأمون ، وألغى ما أصدره فيها من المراسيم ، وأخرج المعتزلة وغيرهم من الملحدين من مناصب الدولة والوظائف التعليمية ، وحرم الجهر بالآراء المخالفة لآراء أهل السنة فى الأدب والفلسفة ، وسَنَّ قانوناً يحتم القول بأن القرآن أزلى غير مخلوق ، واضطهد الشيعة وهدم مشهد الحسين فى كربلاء (٨٥١) . وجدد المتوكل الأمر المعزو إلى عمر بن الخطاب ضد المسيحيين ، والذى وسعه هرون الرشيد حتى شمل اليهود (٨٥٠) ، ثم أهمل العمل به بعيد صدوره ، جدد المتوكل هذا الأمر ففرض على اليهود والمسيحيين أن يلبسوا ثياباً من لون خاص تميزهم من غيرهم من أفراد الشعب ، وأن يضعوا رقعاً ملونة على أكمام أثواب عبيدهم ، وألا يركبوا غير البغال والحمير ، وأن يثبتوا صوراً خشبية للشيطان على أبواب بيوتهم ؛ وأمر بهدم جميع الكنائس والمعابد المسيحية واليهودية الجديدة ، وحرم رفع الصليب علناً فى المواكب المسيحية ، ولم يسمح لمسيحى أو يهودى أن يتلقى العلم فى المدارس الإسلامية .

واتخذ رد الفعل فى الجيل التالى صورة أقل عنفاً من هذه الصورة السابق

وصفها . فقد قام جماعة من العلماء السنيين وجهروا فى شجاعة بقبول حكم المنطق فى الجدل القائم ، وعرضوا أن يثبتوا بالرجوع إلى العقل صدق العقائد الأصيلة . وهؤلاء المتكلمون (المناطقة) فى الإسلام يشبهون الفلاسفة المدرسيين فى أوربا فى العصور الوسطى ، وقد حاولوا أن يوفقوا بين العقائد الدينية والفلسفة اليونانية كما حاول ابن ميمون ذلك فى القرن الثانى عشر بالنسبة لليهودية ، وتومس أكوناس فى القرن الثالث عشر بالنسبة للمسيحية . وظل أبو الحسن الأشعرى (٨٧٣ — ٩٣٥) يعلم الناس مبادئ المعتزلة نحو عشر سنين فى البصرة ، ولكنه انقلب عليهم حين بلغ الأربعين من عمره ، وهاجمهم بسلاحهم هم أنفسهم ، وهو سلاح المنطق ، وسلط عليهم سيلا جارفاً من الجدل القوى كان له أكبر الأثر فى انتصار عقائد أهل السنة . وقد آمن أبو الحسن إيماناً قويا بمبدإ الجبرية فقال إن الله قدر منذ الأزل كل عمل وكل حادث ، وإنه علتها كلها ، وإنه يعلو على القوانين والأخلاق ، وإنه يصرف شئون خلقه كما يشاء ، فإذا بعث بهم جميعاً إلى النار فليس فى ذلك خطأ قط(٥٩) .

ولم يرض أهل السنة كلهم بإخضاع الدين إلى هذا الجدل العقلى ، ونادى كثيرون منهم بمبدإ « بلا كيف » أى أن من واجب الإنسان أن يؤمن دون أن يسأل كيف يكون هذا الإيمان(٦٠) ، وامتنع معظم علماء الدين عن الجدل فى الموضوعات الأساسية ولكنهم اندفعوا يجادلون فى التفاصيل الجزئية لعقيدة اتخذوا مبادئها الأساسية بدائه يسلمون بها دون مناقشة .

وهكذا هدأت موجة الفلسفة فى بغداد ، ولكنها ثارت فى الوقت نفسه فى العواصم الإسلامية الصغرى ؛ فوهب سيف الدولة أبا نصر الفارابى بيتا فى بغداد ، وكان الفارابى أول من نبغ وانتشر صيته من العلماء الأتراك . كان مولده فى فاراب إحدى ولايات التركستان ، ودرس المنطق فى بغداد على معلمين مسيحيين

وقرأ كتاب **الطبيعة** لأرسطو أربعين مرة ، وكتاب **النفس** مائتى مرة ، وزمى بالزندقة فى بغداد ، وارتدى ملابس المتصوفة ، واعتنق مبادئهم ، وعاش كما يعيش طير الهواء . ويقول عنه ابن خلكان إنه « كان أزهد الناس فى الدنيا لا يحتفل بأى مكسب ولا مسكن »(٦١) .

وسأله سيف الدولة عما يكفيه من المال فقال الفارابى إنه يكفيه أربعة دراهم فى اليوم « فأجرى عليه الأمير هذا القدر من بيت المال واقتصر عليها لقناعته ولم يزل كذلك إلى أن توفى » .

وقد بقى من مؤلفات الفارابى تسعة وثلاثون كتاباً كثير منها شروح لأرسطو وتعليقات على آرائه . وقد لخص فى كتابه **إحصاء العلوم** علم عصره فى الفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات ، والطبيعة ، والكيمياء ، والاقتصاد ، والسياسة . وقد أجاب إجابة سلبية صريحة عن السؤال الذى أثار ثائرة الفلاسفة المسيحيين بعد قليل من ذلك الوقت وهو هل الكلى (أى الجنس ، والنوع ، والصفة) يوجد قائماً بنفسه منفصلا عن الجزئى ؟ وقد خدع كما خدع غيره **بإلهيات أرسطو** فبدل الاصطاغيرى العنيد(*) إلى رجل متصوف . وطال به العمر حتى هدأت سورته العلمية واستمسك بقواعد الدين . وكان فى شبابه قد جهر بنزعة لا أدرية متشككة(٦٢) ، ثم خطا فى مستقبل حياته خطوات واسعة ، فأعطانا وصفا مفصلا للخالق(٦٣) مستعيناً على ذلك بالبراهين التى أوردها أرسطو ليثبت بها وجود الله ، والتى استعان بها أكوناس بعد ثلاثة قرون من ذلك الوقت ، فقال إن حدوث سلسلة من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها إلا إذا أرجعناها فى النهاية إلى كائن لا بد من وجوده لوقوعها ، ووجود سلسلة من العلل يتطلب وجود علة أولى ؛ وسلسلة من الحركات يتطلب محركاً أول غير متحرك ؛ والتعدد يتطلب الوحدة .

(*) يريد أرسطو المولود فى اصطاغيرا وهى مدينة أيونية على بحر إيجة . (المترجم)

وإن الهدف النهائى للفلسفة ، وهو الهدف الذى لا يمكن بلوغه كاملا ، هو معرفة العلة الأولى ، وخير طريق للوصول إلى هذه المعرفة هو تطهير النفس . وقد استطاع الفارابى ، كما استطاع أرسطو أن يعنى بجعل أقواله عن الخلود غامضة غير مفهومة . ومات الرجل فى دمشق عام ٩٥٠م .

ومن بين كتب الفارابى الباقية كلها كتاب واحد يدهشنا ما يدل عليه من قوة الابتكار ونعنى به كتاب **المدينة الفاضلة** . ويبدأ الكتاب بوصف قانون الطبيعة بأنه كفاح واحد دائم يقوم به كل كائن حى ضد سائر الكائنات ؛ وهو فى ذلك يشبه ما يقوله هبز Hobbs من أن الأشياء كلها يحارب بعضها بعضاً ؛ ثم يقول إن كل كائن حى يرى فى آخر الأمر أن سائر الكائنات الحية وسائل يحقق بها أغراضه ، ثم يعقب على هذا بقوله إن بعض الساخرين يستنتجون من هذا أن الرجل العاقل فى هذا التنافس الذى لا مفر منه هو أقدر الناس على إخضاع غيره لإرادته ، وأعظمهم تحقيقاً لرغباته كاملة . فكيف خرج المجتمع الإنسانى إذن من هذا القانون قانون الغاب ؟ وإذا ما أمعنا الفكر فى أقوال الفارابى رأينا أنه كان بين المسلمين الذين بحثوا هذا الموضوع فلاسفة من طراز روسو وآخرون من طراز نتشة : فمنهم من قال إن المجتمع قام فى بادئ الأمر على أساس نوع من الاتفاق بين أفراد على أن بقاءهم يتطلب قبول بعض القيود التى تعتمد على العادات والقانون ؛ ومنهم من سخر من هذا « العقد الاجتماعى » وقال إن مثل هذا التعاقد لم يوجد قط فى تاريخ العالم ، وأكد أن المجتمع بدأ ، أو أن الدولة بدأت ، بإخضاع الأقوياء للضعفاء وتجنيدهم تحت سلطانها . ويضيف هؤلاء النتشيون أن الدول نفسها أدوات للتنافس ، وأن من الطبيعى أن يقاتل بعضها بعضاً سعياً وراء سيادتها على غيرها ، وسلامتها ، وسلطانها ، وثرائها ؛ وأن الحرب طبيعية ولا مفر من وقوعها ؛ وأن الذى سيسفر عنه هذا الصراع ، لابد أن يتمشى مع قانون الطبيعة الأزلى ، وهو أن الحق الوحيد هو القوة . ويقاوم الفارابى هذه

النزعة بأن يدعو الناس إلى إقامة مجتمع على قواعد العقل ، والوفاء ، والحب ، لا على أساس الحسد ، والقوة ، والخصام[٦٤] . ويختم بحثه خاتمة موفقة بالدعوة إلى إقامة ملكية على أساس العقيدة الدينية القوية[٦٥] .

وأنشأ تلميذ لأحد تلاميذ الفارابى فى بغداد عام ٩٧٠ جمعية من العلماء — معروفة لنا باسم موطن منشئها — الجمعية السجستانية(*) ، غرضها بحث المسائل الفلسفية . ولم تكن هـــذه الجمعية تسأل أعضاءها عن أصلهم أو مللهم ؛ ويبدو أنها صرفت همها كله إلى دراسة المنطق وفلسفة المعرفة ؛ ولكن وجودها يدل على أن الرغبة فى البحوث العلمية والعقلية لم تخب جذوتها فى عاصمة الدولة الإسلامية . وأهم من هذه الجمعية شأنا ، أو بالأحرى أعظم منها أثراً ، جمعية أخرى من نوعها ، ولكنها فى واقع الأمر جمعية سرية من العلماء والفلاسفة ، أنشئت فى مدينة البصرة عام ٩٨٣ ، ونعنى بها جمعية إخوان الصفا(**) . وكان سبب قيامها أن هؤلاء الإخوان روعهم ما شاهدوه من ضعف الخلافة الإسلامية ، وفقر شعوبها ، وفساد أخلاقهم ؛ فتاقت نفوسهم إلى تجديد الإسلام من النواحى الأخلاقية ، والروحية ، والسياسية ؛ وخيل إليهم أن هذا التجديد إنما يقوم على مزيج من الفلسفة اليونانية والمسيحية ، والتصوف الإسلامى ، وآراء الشيعة السياسية ، والشريعة الإسلامية . وكانوا يفهمون الصداقة على أنها تعاون بين ذوى الكفايات والفضائل المختلفة ، تأتى فيها كل طائفة بما تحتاجه الجماعة كلها وما لا تجده عند الطوائف الأخرى . وفى اعتقادها أن الوصول إلى الحقيقة عن طريق اجتماع العقول أيسر من الوصول إليها عن طريق التفكير الفردى . ولهذا كانوا يجتمعون فى السر ويبحثون فى حرية تامة شاملة ، وتفكير واسع

(*) منشئ هذه الجمعية هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى . (المترجم)

(**) اسمهم الكامل « إخوان الصفاء ، وخلان الوفاء ، وأهل العدل ، وأبناء الحمد » . (المترجم)

الأفق ، وتأدب جم ، جميع مشاكل الحياة الأساسية . وأصدرت الجماعة فى آخر الأمر إحدى وخمسين رسالة جمعت شتات أبحاثها كلها ، وضمنتها خلاصة العلوم الطبيعية والدينية ، والفلسفة . وأولع أحد مسلمى الأندلس أثناء تجواله فى بلاد الشرق الأدنى حوالى عام ١٠٠٠ م بهذه الرسائل ، فجمعها واحتفظ بها .

ونجد فى هذه الرسائل البالغة ١١٣٤ صفحة تفسيراً علمياً للمد والجزر ، والزلازل ، والخسوف والكسوف ، والأمواج الصوتية ، وكثير غيرها من الظواهر الطبيعية ، كما نجد فيها قبولا صريحاً كاملا للتنجيم والكيمياء الكاذبة ، ولا تخلو من عبث بالسحر وتلاعب بالأعداد . أما ما فيها من العقائد الدينية فهو شديد الصلة بالأفلاطونية الجديدة كما هو شأن الكثرة الغالبة من كتابات المفكرين المسلمين ؛ فهم يقولون إنه عن الموجود الأول أى الله يصدر العقل الفعال ، وعن هذا العقل يصدر عالم الأجسام والنفوس ؛ وإن جميع الأشياء المادية توجدها النفس ، وتعمل عن طريقها ؛ وكل نفس تظل مضطربة قلقة حتى تتصل بالعقل الفاعل ، أو نفس العالم ، أو النفس الكلية ، ويتطلب هذا الاتصال تطهير النفس تطهيراً كاملا ، والأخلاق هى الفن الذى تصل به النفس إلى هذا التطهير ؛ والعلم والفلسفة والدين كلها وسائل لبلوغه . ويجب علينا فى سعينا للتطهير أن ننسج على منوال سقراط فى الأمور العقلية ، وأن نهج نهج المسيح فى الإحسان إلى الخلق عامة ، ونهج علىّ فى نبله وتواضعه . فإذا ما تحرر العقل عن طريق المعرفة ، وجب أن يحس بحريته فى أن يؤول عبارات القرآن التى تتناسب مع فهم بدو غير متحضرين يسكنون الصحراء تأويلا مجازياً[٦٦] . ويمكن القول بوجه عام إن هذه الرسائل الإحدى والخمسين أكمل ما وصل إلينا من تعبير عن التفكير الإسلامى فى العصر العباسى ، وإنها أعظم تناسقاً من جميع الرسائل التى لدينا فى هذا التفكير . وقد رأى علماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الإلحاد فحرقوها فى عام ١١٥٠ ؛ ولكنها رغم هذا ظلت تتداولها الأيدى ، وكان لها أثر شامل عميق فى الفلسفة

الإسلامية واليهودية — نشاهده فى كتابات الغزالى وابن رشد ، وابن جبرول ، وهليفى(٦٧) ؛ وتأثر بها كذلك المعرى الشاعر الفيلسوف ، ولعلها كان لها أثر فى ذلك الرجل الذى بز فى حياته القصيرة ما فى رسائل هذه الجماعة المتعاونة المؤتلفة من نزعة عقلية ، وكان أكثر من أصحابها سعة فى الأفق وعمقاً فى التفكير ونعنى به ابن سينا . ذلك أن ابن سينا لم يكفه أن يكون حجة فى العلوم الطبيعية ، ومرجعاً ذائع الصيت فى الطب ؛ وما من شك فى أنه قد أدرك أن العالم لا يكمل علمه إلا إذا أضاف إليه الفلسفة . ويحدثنا أنه قرأ كتاب **ما بعد الطبيعة** لأرسطو أربعين مرة من غير أن يفهمه(*) ، وأنه حين استطاع آخر الأمر أن يدرك معناه بعد أن قرأ تعليق الفارابى عليه ، سر لهذا سروراً عظيما وحمد الله على هذا وخرج إلى الشارع ووزع الصدقات(٦٨) . وبقى ابن سينا مستمسكاً بفلسفة أرسطو إلى آخر أيامه . وقد سماه فى كتاب **الفانون** بالفيلسوف وهو اللفظ الذى أصبح فى اللغة اللاتينية مرادفاً للفظ أرسطو نفسه . وقد فصل ابن سينا فلسفته فى **كتاب الشفاء** ثم أوجزها فى كتاب **النجاة** . وكان الرئيس ابن سينا ذا عقل منطقى ، يصر على التعاريف والتحديدات الدقيقة . وقد أجاب عن السؤال الذى شغل علماء العصور الوسطى طويلا وهو : هل الكليات (كالإنسان ، والفضيلة ، والاحمرار) توجد منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة فيقول : (١) إنها توجد « قبل الأشياء » فى عقل الله وعلى نسقها توجد الأشياء ، (٢) وفى الأشياء بالصورة التى تتمثل فيها (٣) وبعد الأشياء بأن تكون معانى مجردة فى العقل البشرى . ولكن الكليات لا توجد فى العالم الطبيعى منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة . وبعد مائة عام من الجدل والخصام أجاب ابلار Abélard وأكوناس عن هذا السؤال هذا الجواب نفسه .

(*) إن الذى قاله ابن سينا هو « قرأت كتاب السماع الطبيعى لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة وأرى أنى محتاج إلى قراءته » . (المترجم)

والحق أن ميتافيزيقية ابن سينا تكاد تكون خلاصة ما وصل إليه المفكرون اللاتين بعد مائتى عام من أيامه من توفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة فى الفلسفة المدرسية . وهو يبدأ بشرح مفصل بذل فيه جهداً شاقاً لمذهب أرسطو والفارابى فى المادة والصورة ، والعلل الأربع ، والممكن والواجب ، والكثرة ، والواحد ، ويدهشه كيف تستطيع الكثرة الممكنة المتغيرة — كثرة الأشياء الفانية — أن تصدر عن الواحد الواجب الوجود الذى لا يتغير . وهو يفعل ما يفعله أفلوطين فيفكر فى حل هذه المشكلة بافتراض وجود وسيط بينهما هو العقل الفاعل منتشراً فى العالم السماوى ، والمادى ، والبشرى ، وهو النفس . ثم إنه وجد شيئاً من الصعوبة فى التوفيق بين الانتقال من عدم الخلق إلى الخلق وبين صفة عدم التغير الملازمة لله ، فينزع إلى الاعتقاد مع أرسطو بقدم العالم المادى ، ولكنه يدرك أن هذا سيؤلب عليه جماعة **المتكلمين** فيعرض عليهم حلا وسطا كثيراً ما لجأ إليه الفلاسفة المدرسيون وهو : أن وجود الله سابق على وجود العالم سبقا ذاتياً لازمانياً ، أى فى المرتبة والجوهر والعلة ؛ فوجود العالم يعتمد فى كل لحظة من اللحظات على وجود القوة الحافظة له ، وهى الله ؛ ويقول ابن سينا إن كل الموجودات « ممكنة » حتى الأفلاك نفسها أى أنها ليست واجبة الوجود أو محتومة . وهذه الممكنات لا بد لوجودها من علة تتقدمها وتخرجها إلى الوجود ، ولهذا لا يمكن تفسير وجودها إلا بإرجاعها بعد سلسلة من العلل إلى موجود واجب الوجود ، أى واحد قائم بذاته هو العلة الأولى لسائر الموجودات . والله وحده هو الموجود بذاته ، وإن وجوده لهو عين ماهيته فهو واجب الوجود . ولولاه لما كان شىء مما يمكن أن يكون . ولما كان العالم كله ممكناً أى أن وجوده ليس بذاته ، فإن الله لا يمكن أن يكون مادة بل إنه برىء من الجسم ، وهو كالعقل ، واحد من كل وجه لا تركيب فيه . ولما كان فى المخلوقات كلها عقل فلا بد أن يكون فى خالقها عقل أيضاً . وهذا العقل الأول يرى كل شىء — الماضى والحاضر والمستقبل — لا فى وقت ولا بالتتابع ،

بل يراه كله مرة واحدة . وحدوث هذه الأشياء هو النتيجة الزّمنية لفكرة اللازمنى . ولكن الأفعال والحوادث لا تصدر عن الله مباشرة ، بل إن الأشياء تتطور بفعل غائى داخلى — أى أن لها أغراضًا ومصائر فى ذاتها ، ولهذا فإن الله لا يصدر عنه الشر ، بل إن الشر هو الثمن الذى نؤديه نظير ما لنا من حرية الإرادة ، وقد يكون الشر للجزء هو الخير للكل(٦٩) .

ووجود النفس يدل عليه التأمل الداخل المباشر. والنفس لهذا السبب عينه روحانية ، فنحن لا ندرك أكثر من أنها كذلك ، وأفكارنا منفصلة انفصالا واضحاً عن أعضائنا . وهى مبدأ الحركة الذاتية والنماء فى الجسم ؛ وبهذا المعنى تكون للكواكب نفوس . والكون كله مظهر لمبدإ الحياة العام(٧٠) ، والجسم وحده لا يستطيع أن يكون فاعلا ، بل إن سبب كل حركة من حركاته هو نفسه التى تحل فيه ، ولكل نفس ولكل عقل قدر من الحرية والقدرة على الخلق والإبداع شبيهة بقدرة السبب الأول لأنها فيض منه . وتعود النفس الخالصة بعد الموت إلى الاتصال بالفعل الكلى ، وفى هذا الاتصال تكون سعادة السعداء الصالحين(٧١) .

ولقد بذل ابن سينا كل ما يستطيع أن يبذله من الجهود للتوفيق بين الآراء الفلسفية وعقائد جمهرة المسلمين . فلم يكن مثل لكريشيوس يرغب فى القضاء على الدين من أجل الفلسفة ، ولم يكن كالغزالى فى القرن الذى بعده يريد أن يقضى على الفلسفة من أجل الدين ؛ بل هو يعالج كل مسألة مستنداً إلى العقل وحده ، غير متقيد مطلقاً بالدين ؛ ويحلل الوحى فى ضوء قوانين الطبيعة(٧٢) ، ولكنه يؤكد حاجة الناس إلى الأنبياء ليبينوا لهم قواعد الأخلاق فى صور من الاستعارات والمجازات تفهمها عقولهم وتتأثر بها . وبهذا المعنى يكون النبى رسول الله لأنه يضع الأسس التى يقوم عليها النظام الأخلاقى والاجتماعى(٧٣) . ومن أجل هذا كان النبى ينادى ببعث الأجسام ، وكان فى بعض الأحيان يصور الجنة تصويراً مادياً ؛ والفيلسوف ، وإن كان يشك فى خلود الجسم ، يدرك أنه لو أن النبى

قد اقتصر على تصوير الجنة تصويراً روحياً محضاً لما استمع الناس إليه ، ولما تألفت منهم أمة واحدة قوية منظمة . وأرقى البشر وأرفعهم درجة هم الذين يستطيعون أن يعبدوا الله عبادة تقوم على الحب الحر ، وهو الذى لا ينبعث من الرغبة أو الرهبة ؛ ولكن هؤلاء لا يكشفون عن هذه المرتبة السامية لعامة أتباعهم بل يكشفونها لمن كملت عقولهم وسمت نفوسهم(٧٤) .

وكتابا **الشفاء والقانون** لابن سينا هما أرقى ما وصل إليه التفكير الفلسفى فى العصور الوسطى ، وهما من أعظم البحوث فى تاريخ العقل الإنسانى . وهو يسترشد فى كثير من بحوثه فى الكتابين بأرسطو والفارابى ، كما استرشد أرسطو فى كثير من بحوثه بأفلاطون . غير أن هذا لا ينقص من قدره ، ذلك أن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم . وفى بعض أقوال ابن سينا ما يبدو لعقولنا المعرضة إلى الخطأ أنه سخف وهراء ، ولكن هذا الحكم بعينه ينطبق أيضاً على أقوال أفلاطون وأرسطو ؛ والحق أنه ليس ثمة سخيف لا نجده فى صحف الفلاسفة . ولسنا نجد عند ابن سينا ما نجده عند البيرونى من أمانة التشكك ، وروح النقد ، واتساع الأفق ، وحرية العقل ؛ وهو أكثر منه أخطاء ؛ ذلك أن البحوث التركيبية لا بد أن تؤدى هذا الثمن ما دامت الحياة على ما هى من قصر الأمد . ولقد برز الرئيس ابن سينا جميع أقرانه بوضوح أسلوبه ، وحيويته ، وبقدرته على جعل التفكير المجرد مشرقاً بعيداً عن السآمة والملل بما يبثه فيه من القصص الإيضاحية وأبيات الشعر التى لا نرى عليه مأخذاً فى إيرادها ، وباتساع مجاله الفلسفى والعلمى اتساعاً منقطع النظير . ولقد كان ابن سينا عظيم الأثر فيمن جاء بعده من الفلاسفة والعلماء ، وقد تعدى هذا الأثر بلاد المشرق إلى الأندلس حيث شكل فلسفة ابن رشد وابن ميمون ، وإلى العالم المسيحى اللاتينى وفلاسفته

المدرسيين ؛ وإنا لندهش من كثرة ما نجده من آراء ابن سينا فى فلسفة ألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ، ويسميه روچر بيكن : « أكبر عميد للفلسفة بعد أرسطو »(٧٥) . ولم يكن أكوناس وهو يتحدث عنه بنفس الاحترام الذى يتحدث به عن أفلاطون مجاملا قط كمألوف عادته حين يتحدث عن عظماء الرجال(*) .

وكاد أجل الفلسفة العربية فى الشرق ينقضى بموت ابن سينا ؛ ذلك أن نزعة السلاجقة السنية القوية ، وارتياع رجال الدين من الآراء الفلسفية الجريئة ، وانتصار نزعة الغزالى الصوفية ، لم تلبث كلها أن قضت على كل تفكير . وإن مما يؤسف له أن يكون علمنا بتلك القرون الثلاثة (٧٥٠ — ١٠٥٠) التى ازدهر فيها التفكير الإسلامى ناقصاً كل النقص . ويرجع سبب ذلك إلى أن آلافاً من المخطوطات العربية فى العلوم ، والآداب ، والفلسفة لا تزال مخبوءة فى مكتبات العالم الإسلامى . ففى اسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد ، لم ير الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير ؛ وفى القاهرة ، ودمشق ، والموصل ، وبغداد ودهلى ، مجموعات ضخمة ، لم يعن أحد حتى بوضع فهارس لها(**) ؛ وفى الأسكوريال بالقرب من مدريد مكتبة ضخمة لم يفرغ بعد من إحصاء مافيها من

(*) احتفل فى عام ١٩٥٢ بالعيد الألفى لابن سينا حسب التاريخ الهجرى وأقيم له قبر رائع فى همذان ونشرت مصر بهذه المناسبة بعض مؤلفاته . (المترجم)

(**) مما نسجله بمزيد الحمد للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية أنها عنيت عناية كبيرة بالبحث عن هذه المخطوطات فى مكتبات العالم الإسلامى ، فأرسلت الوفود العلمية لتصوير ما يوجد منها فى تلك المكتبات ، وهى جادة فى هذا العمل الجليل . لكننا نرجو أن تقوم وزارات المعارف فى الدول الإسلامية بنصيبها فيه ؛ فإنه فى اعتقادنا أوسع من أن تضطلع به الإدارة الثقافية وحدها . (المترجم)

مخطوطات إسلامية فى العلوم ، والآداب ، والشريعة ، والفلسفة(٧٧) ؛ وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامى فى تلك القرون الثلاثة إلا جزءاً صغيراً مما بقى من تراث المسلمين ، وليس هذا الجزء الباقى إلا قسما ضئيلا مما أثمرته قرائحهم ؛ وليس ما أثبتناه فى هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم . وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسى فأكبر ظننا أننا سنضع القرن العاشر من تاريخ الإسلام فى الشرق بين العصور الذهبية فى تاريخ العقل البشرى .

الفصل الخامس

التصوف والإلحاد

يلتقى الدين والفلسفة فى أعلى درجاتهما فى معنى وحدة الكون وفى تأمل هذه الوحدة . والنفس حين لا تسلك طريق البحث على منهاج العقل والمنطق ، وحين تعجز عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة ، ومن الحادث الفرد إلى القانون العام ، قد يكون فى وسعها أن تصل إلى هذه الرؤيا عن طريق اندماج النفس الفردية وتلاشيها فى النفس الكلية . وحيث عجز العلم وعجزت الفلسفة ، وحيث يرتد عقل الإنسان القاصر المحدود أمام اللانهائية خاسئاً وهو حسير ، فإن الإيمان قد يسمو بالإنسان إلى ما بين عرش الله إذا أخذ نفسه بنظام صارم من الزهد ، والتقشف ، والتفانى فى العبادة ، والتجرد من كل رغبة أنانية ، وإفناء الجزء فى الكل إفناء كاملا .

ويرجع التصوف الإسلامى إلى أصول كثيرة : منها نزعة الزهد عند فقراء الهندوس ، وغنوطسية مصر والشام ، وبحوث الأفلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين ، وتأثير الرهبان المسيحيين الزاهدين المنتشرين فى جميع بلاد المسلمين . وقد وجدت فى العالم الإسلامى ، كما وجدت فى العالم المسيحى ، أقلية تقية تعارض فى تكييف الدين حسب وسائل العالم الاقتصادى ومصالحه ؛ فكانوا ينددون بترف الخلفاء ، والوزراء ، والتجار ، ويدعون المسلمين أن يعودوا إلى بساطة أبى بكر وعمر بن الخطاب . وكانوا يرفضون فكرة وجود وسيط أياً كان بينهم وبين الله ؛ وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لهم عقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة التى تسموفيها الروح بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية حتى تشاهد ذات الله العلية . فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد

مع ذات الله نفسها . وازدهرت حركة التصوف فى بلاد الفرس بنوع خاص ولعل سبب ازدهارها فيها قربها من بلاد الهند ، كما ازدهرت فى جنديسابور بتأثير الديانة المسيحية وتقاليد الأفلاطونية الجديدة التى وضعها فلاسفة اليونان بعد أن فروا من أثينة إلى فارس فى عام ٥٢٩ . وكلمة صوفى التى تطلق على معظم الزهاد المسلمين مشتقة من ثياب الصوف البسيطة التى كانوا يرتدونها(*) . وكانت طوائف الصوفية تضم كثيرين من المؤمنين بمبادئها المتحمسين لها ، ومن كبار الشعراء ، والقائلين بوحدة الوجود ، والزهاد ، والمشعوذين ، والكثيرى الزوجات . وكانت مبادئهم تختلف باختلاف الأوقات والبيئات ؛ ويقول ابن رشد إن الصوفيين يعتقدون أن معرفة الله مستقرة فى قلوبنا ، بعد أن نتخلى عن جميع الشهوات الجسمية والانقطاع إلى الله(٧٨) . ولكن كثيرين من الصوفيين حاولوا أن يصلوا إلى الله عن طريق الأشياء الخارجية أيضاً ، فقالوا إن كل ما نراه فى العالم من كمال وجمال سببه حلول الله فيه . ويقول أحد الصوفية إنه لا يسمع صوت الحيوان ، أو خفيف أوراق الشجر ، أو خرير الماء ، أو تغريد الطير ، أو هبوب الريح ، إلا أحس أنها كلها شواهد على وحدانيته وأنه سبحانه لا شبيه له(٧٩).

والحق أن الصوفى يعتقد أن هذه الأشياء المتفرقة إنما توجد بما فيها من القوة الإلهية ، وأنها إنما وجدت لما هو كامن فيها من روح الله . وعلى هذا فالله هو كل شىء ، وهم لهذا لا يكتفون بالقول بأنه لا إله إلا الله ، بل يضيفون إلى هذا أنه لا موجود بحق سواه(٨٠). وعلى هذا فكل نفس هى الله ؛ والصوفى الكامل يجهر فى غير مواربة بأنه « هو نفس الذات الإلهية » . ويقول أبو يزيد (حوالى عام ٩٠٠) : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى »(٨١)(**) . ويقول الحسين

(*) فى كتاب الأستاذ رينولد ا . نيكولسون ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى فصل قيم فى سبب هذه التسمية فليرجع إليه من يريد التوسع فى هذا البحث . (المترجم)

(**) يقول الأستاذ نيكلسون إن فى نسبة هذه الأقوال إلى أبى يزيد بعض الشك . انظر ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى السالفة الذكر . (المترجم)

ابن منصور الحلاج :

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

إنى مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود . . . أنا الحق »(٨٢)(*)

وقبض على الحلاج لمغالاته فى عقيدته الصوفية ، وضرب مائة سوط وألقى فى النار حتى مات (٩٢٢) . ويدعى أتباعه أنهم شاهدوه وتحدثوا إليه بعد أن خمدت أنفاسه على هذا النحو إلى حين ، واتخذه كثيرون من الضوفية وليهم وحاميهم .

ويعتقد الصوفى كما يعتقد الهندوسى أن نظاماً صارماً من التطهير لا بد منه لكى ينكشف عنه الغطاء ويرقى إلى عالم الفيض والإلهام . والتطهير يكون بضروب من التفانى فى الطاعات ، والتأمل والنظر والتدبر ، والصلاة ، وإطاعة المريد لأستاذه الصوفى أو معلمه ، والتجرد الكامل من جميع الشهوات البدنية ، بما فيها التجرد من شهوة النجاة ، والاتحاد الصوفى مع الله . والصوفى الكامل يحب الله لذاته لا رغبة فى ثواب ولا خوفاً من عقاب . وفى ذلك يقول أبو القاسم إن المعطى خير من العطية(٨٣) . والصوفى عادة يتخذ هذا النظام وسيلة يصل بها إلى معرفة الأشياء معرفة حقيقية ، ومنهم من يتخذه نهجاً يرتفع به إلى درجة من الكرامة تجعل له سلطاناً على الطبيعة ، ولكنه يكاد يكون على الدوام سبيلا إلى الاتحاد مع ذات الله . ومن فنيت نفسه فناء تاما فى هذا الاتحاد يسمى عندهم الإنسان الكامل(٨٤). ويعتقد الصوفية أن من وصل إلى هذه المرتبة أصبح فوق كل القوانين ، وغير ملزم حتى بأداء فريضة الحج . وفى ذلك يقول أحد المتصوفة

(*) يذكر ابن النديم صاحب الفهرست أسماء ٣٥ كتاباً للحلاج منها كتاب نور النور التجليات ، وكتاب علم البقاء والفناء ، وكتاب كيف كان وكيف يكون ، وكتاب لا كيف . (المترجم)

إن كل العيون تتجه نحو الكعبة أما عيوننا فتتجه نحو وجه الحبيب(٨٥) .

وظل الصوفية يعيشون فى الدنيا كسائر الناس حتى منتصف القرن الحادى عشر ، وكانوا أحياناً يعيشون مع أسرهم وأبنائهم . بل إنهم كانوا لا يرون أن للعزوبة قيمة كبرى من الناحية الأخلاقية . وفى ذلك يقول أبو سعيد إن الولى الحقيقى يسير بين الناس ، ويأكل وينام معهم ، ويشترى ويبيع فى الأسواق ، ويتزوج ، ويشترك مع الناس فى مجالسهم ، ولا ينسى الله لحظة واحدة(٨٦) .

ولم يكن هؤلاء الصوفية يمتازون عن غيرهم بشىء سوى بساطة حياتهم ، وتقواهم وخشوعهم ، وهم يشبهون من هذه الناحية طائفة الكويكرين المسيحيين . وكانوا من حين إلى حين يجتمعون حول شيخ من الأتقياء الصالحين أو يجتمعون جماعات للصلاة والدعوة المتبادلة إلى التقى والصلاح ؛ وقد بدأت منذ القرن العاشر مجالس الذكر التى أصبح لها شأن عظيم عند الصوفية المتأخرين . ومنهم عدد قليل اعتزلوا العالم وعذبوا أنفسهم ، وإن كان الزهد فى ذلك الوقت من الأمور النادرة ، وكان يلقى كثيراً من المقاومة . وكثر الأولياء من بين الصوفية بعد أن لم يكن لهم وجود فى بداية الإسلام . ومن أوائل هؤلاء رابعة العدوية من أهل البصرة (٧١٧ — ٨٠١) . وكانت فى شبابها جارية اشتريت بالمال ولكن سيدها أعتقها لأنه شاهد هالة من النور فوق رأسها وهى قائمة للصلاة . وأبت رابعة أن تتزوج وعاشت عيشة الزهد ، وإنكار الذات ، وفعل الخير . وسئلت فى يوم من الأيام « هل تكرهين الشيطان ؟ » ، فأجابت : « إن حبى لله قد منعنى من الاشتغال بكراهية الشيطان » . ومما يروى عنها تلك المناجاة الصوفية الذائعة الصيت : « إلهى ! إن كنت عبدتك خوف النار فاحرقنى بالنار ، أو طمعاً فى الجنة فحرّمها علىّ ، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى

من مشاهدة وجهك ؛ إلهى ! كل ما قدرّته لى من خير فى هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لى فى الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى إلاّ إليك وحدك »(٨٧)(*) .

ولنختر من بين الصوفية وهم كثيرون واحداً من الأولياء الصالحين هو الشاعر أبو سعيد بن أبى الخير (٩٦٧ — ١٠٤٩) . ولد هذا الرجل فى مهنة من أعمال خراسان واتصل بابن سينا ؛ ويروى عنه أنه قال فى هذا الفيلسوف إن ما يراه ابن سينا يعرفه هو(٨٨) . وقد أولع فى صباه بالأدب البذىء ، ويقول عن نفسه إنه حفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت لشعراء الجاهلية ؛ ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره سمع فى يوم من الأيام درساً لأبى على يدور حول قوله تعالى « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . ويقول أبو سعيد إنه ما كاد يسمع هذه الآية حتى فتح فى قلبه باب الإيمان وكأنما انتزع من نفسه فجمع كتبه كلها وأحرقها ثم آوى إلى ركن فى بيته ، وجلس فيه سبع سنين يذكر فيها اسم الله . ولقد كان تكرار لفظ الجلالة عند الصوفية المسلمين سبيلا محببة إلى « الفناء » ويقصدون به انتقال الصوفى عن نفسه فى حال وجده . وزاد أبو سعيد على هذا عدة أساليب من الزهد والتقشف ، فلم يلبس إلا قميصاً واحداً ، ولم يتكلم إلا عند الضرورة القصوى ، ولم يذق الطعام إلا وقت الغروب . ولم يكن طعامه إلا كسرة من الخبز ، ولم يرقد على فراش لينام ، وحفر فى جدار بيته حفرة ، لا تزيد حين يقف فيها على طوله وعرضه ، وكثيراً ما كان يحبس نفسه فيها . ويسد أذنيه لكيلا تصل إليهما أصوات من الخارج . وكان فى بعض الليالى يربط نفسه بحبل ويتدلى برأسه فى بئر ، ويتلو القرآن كله قبل أن يخرج إلى سطح الأرض — هذا إذا صدقنا قول أبيه عنه . وقد عكف على خدمة غيره من الصوفية ، فكان يتسول لهم ، وينظف

(*) نقلنا هذا النص عن « تذكرة الأولياء للعطار ، والذى أورده المؤلف هو الجزء الثانى ، وقد أضفنا نحن الجزء الأول إتماماً للفائدة . (المترجم)

لهم خلواتهم وفضلاتهم . ويقول عن نفسه إن امرأة صعدت إلى سقف المسجد وهو فيه وألقت عليه الأقذار ، ولكنه مع ذلك ظل يسمع صوتاً يناديه « أليس الله بكاف عبده ؟ » . ولما بلغ الأربعين من عمره وصل إلى مرتبة الإشراق الكامل وبدأ يخطب الناس ، والتف حوله كثيرون من الأتقياء المخلصين ، ويؤكد لنا هو أن بعض مستمعيه كانوا يلطخون وجوههم بروث حماره لتحل عليهم بركته(٨٩) . وقد ترك أثره فى التصوف بأن أنشأ خانقاه للدراويش ووضع لها طائفة من القواعد جعلتها نموذجاً لأبناء الطائفة فى القرن الذى بعده .

وكان أبو سعيد يعلم الناس ، كما علمهم القديس أوغسطين ، أن رحمة الله ، لا أعمال العبد الصالحة ، هى سبيل النجاة ؛ ولكنه كان يعنى بالنجاة ، التحرر الروحى ، ولم يفهمها على أنها دخول الجنة ، ويقول إن الله يفتح للإنسان باباً بعد باب وأولها باب التوبة ثم يأتى بعدها باب اليقين فإذا بلغه تقبل السباب والتحقير وعلم علم اليقين مصدره ... ثم يفتح له الله بعدئذ باب الحب ، ولكنه لا ينفك يقول فى نفسه « أحب » . . . ثم يفتح له باب التوحيد . . . وعنده يدرك أن الله كل شىء وأن كل شىء منه وإليه . . . ويعرف أنه غير محق فى قوله « أنا » أو « لى » . . . لأن الرغبات تتساقط عنه فيتخلى عنها ويهدأ باله . . . لأن الإنسان لا يفر من نفسه إلا إذا قتلها . إن نفسك تبعدك عن الله ، وتقول إن فلاناً وفلاناً يتوعدانى فى الشر . . . وهذا قد أحسن إلىّ — كل هذا شرك بالله ، فليس شىء يعتمد على المخلوقات ، بل يعتمد كل شىء على الخالق . إن عليك أن تعرف هذا ، فإذا قلته فاثبت عليه . . . والثبات معناه أنك إذا قلت « واحداً » فلا تقل « اثنين » أبداً . . . قل الله واثبت على هذا القول(٩٠) .

وتظهر هذه العقيدة الهندية — الإمرسونية(*) فى بعض الأقوال المنسوبة إلى أبى سعيد وإن كانت نسبتها إليه مشكوكا فيها !

(*) أى التى هى مزيج من عقائد الهند وإمرسن الفيلسوف الأمريكى . (المترجم)

وسألته : « لمن يكون جمالك ؟ » فقال : « لى » لأنه لاموجود سواى ؛ أنا الحب ، والمحبوب ، والحب كلها فى واحد ، أنا الجمال ، والمرآة ، والعينان اللتان تريان(٩١) .

وإذا لم يكن عند المسلمين ، كما كان عند المسيحيين ، كهانة تثبت لهؤلاء الأبطال الصالحين قداستهم ، فقد خلع عليهم الشعب نفسه هذه القداسة ، ولم يحلّ القرن الثانى عشر الميلادى حتى غلبت عواطف الشعب الطبيعية ، ما نهى عنه الدين من تقديس الأولياء الصالحين واعتبار هذا التقديس ضرباً من الوثنية . وكان من أوائل هؤلاء الأولياء الصالحين إبراهيم ابن أدهم (القرن الثامن ؟) ، وهو الذى يسميه لى هنت Leigh Hunt فى قصيدة له مشهورة أبو بن أدهم Abou ben Adhem . ويعزو خيال العامة إلى هؤلاء الأولياء قوى خارقة فيقولون إنهم قد كشف عن أعينهم الغطاء فأصبحوا يرون ما لا يراه عامة الناس ، ويقرءون الأفكار ، ويتبادلون الخواطر والمشاعر مع الناس ، بل إنهم يبالغون فى مقدرتهم فيقولون إن فى وسعهم أن يبتلعوا النار والزجاج دون أن يصيبهم من ذلك أذى ، وأن يخترقوا النيران من غير أن يحترقوا بها ، وأن يمشوا على الماء ، ويطيروا فى الهواء ، ويجتازوا المسافات الشاسعة فى غمضة عين . ويروى أبو سعيد حالات من قراءة الأفكار لا تقل غرابة عن أغرب ما يروى من نوعها فى هذه الأيام (٩٢) . وهكذا يحدث على توالى الأيام أن الدين(*) الذى يظن بعض الفلاسفة أنه من صنع القساوسة والكهان ، يتشكل ثم يتشكل بتأثير حاجات الناس وعواطفهم وخيالهم ، حتى يصبح التوحيد الذى يجىء به الأنبياء ثم يكون هو بعينه الشرك الذى يعتقده عامة الشعب .

وقبل المسلمون من أهل السنة الصوفية فى حظيرة الدين الإسلامى ، وأفسحوا

(*) لا حاجة إلى التنبيه بأن الكاتب لا يقصد بهذا ديناً معيناً بل يشير إلى الأديان بوجه عام . (المترجم)

لهم مجالا كبيراً فى عقائدهم وأقوالهم ؛ ولكن هذه الخطة الحكيمة لم تمتد إلى الطوائف المارقة التى تخفى تحت ستار العقائد الدينية آراء سياسية ثورية ، أو تدعو إلى الفوضى الأخلاقية والقانونية . ومن بين هذه الطوائف الثورية التى مزجت فى عقائدها الدين بالسياسة طائفة « الإسماعيلية » ؛ ويذكر القارئ ما قلناه قبل من أن الشيعة يقولون إن على رأس كل جيل من أبناء على إلى الجيل الثانى عشر إماماً أو زعيما ، وإن هذا الإمام يختار من يخلفه فى هذه الزعامة . وعلى هذا الأساس عين الإمام السادس جعفر الصادق ابنه إسماعيل خليفة له من بعده . ويقال إن إسماعيل هذا أدمن الخمر ، فخلعه جعفر عن الإمامة واختار بدله موسى الإمام السابع (حوالى عام ٧٦٠) ؛ ورأى بعض الشيعة أن بيعة إسماعيل لا يجوز نقضها وقالوا إنه هو أو ابنه محمد هو الإمام السابع وآخر الأئمة . وظلت طائفة « الإسماعيلية » هذه نحو مائة سنة قليلة الخطر لا يؤبه بها ، حتى تزعمها عبد الله بن ميمون القداح وأرسل المبشرين يدعون إلى عقيدة الطائفة فى بلاد الإسلام . وكان يطلب إلى المبتدئ قبل الدخول فى الطائفة أن يقسم بألا يفشى شيئاً من أسرارها ، وأن يطيع الزعيم الأكبر للطائفة فى كل ما يأمره به . وكانت تعاليمهم قسمين أحدهما باطنى وآخر ظاهرى . وكان يقال لمن يدخل فى مذهبهم إنه بعد أن يمر بتسعة مراحل ترفع عنه جميع الحجب ، وينكشف له التعليم أو العقيدة الخفية (الله هو كل شىء) فيصبح فوق كل عقيدة وكل قانون . وفى المرتبة الثامنة يقال له إن الكائن الأعلى لا يمكن أن يعرف عنه شىء ، وإن أحداً لا يستطيع أن يعبده[٩٣] ؛ وقد انضم إلى طائفة الإسماعيلية كثيرون من فلول الحركات الشيوعية ، دفعهم إلى هذا ما تقول به من أن مهدياً سيظهر فى وقت من الأوقات ، ويبسط على الأرض عهدا من المساواة ، والعدالة ، والحب الأخوى . وقد أوضحت هذه الطائفة الأخوية العجيبة قوة ذات شأن عظيم فى الإسلام سيطرت فى وقت من الأوقات على شمالى إفريقية ومصر ، وأسست الخلافة الفاطمية ، وقامت فى أواخر

القرن التاسع بحركة كادت تقضى على الخلافة العباسية :

ولما مات عبد الله القداح فى عام ٨٧٤ تولى زعامة الإسماعيلية فلاح عراقى اشتهر باسم حمدان قرمط ، وبعث فيها من النشاط ما جعل الناس فى آسية يسمون أتباعها فى وقت من الأوقات بالقرامطة نسبة إليه . وكان يرمى إلى القضاء على قوة العرب ، وإعادة الدولة الفارسية ؛ وضم إليه خفية آلافا من المؤيدين ، والأعوان ، وفرض عليهم أن يخرجوا عن خمس أملاكهم ودخلهم ليصبح ملكا عاما للجماعة . ودخل للمرة الثانية عنصر من عناصر الثورة الاجتماعية فى تلك الحركة التى كانت فى ظاهر أمرها نوعا من الصوفية الدينية . فكان القرامطة يقولون بشيوعية الملك والنساء(٩٤) ، وقد نظموا العمال فى طوائف للحرف ، ونادوا بالمساواة بين كافة الناس ، وأخذوا يفسرون القرآن تفسيراً مجازياً لا يتقيدون فيه بأقوال أهل السنة . وكانوا يتحللون من الشعائر الدينية ومن الصيام ، ويسخرون من البلهاء الذين يعبدون الأضرحة والحجارة(٩٥) . وبلغ من أمرهم أن أقاموا فى عام ٨٩٩ دولة مستقلة على الشاطئ الغربى للخليج الفارسى ، وهزموا جيش الخليفة فى عام ٩٠٠ ، وأفنوه عن آخره ، ولم ينج من القتل جندى واحد . وفى عام ٩٠٢ اجتاحوا بلاد الشام ووصلوا إلى أبواب دمشق ، وفى عام ٩٢٤ نهبوا البصرة ثم الكوفة ؛ وفى عام ٩٣٠ نهبوا مكة نفسها ، وقتلوا ثلاثين ألفا من المسلمين ، وعادوا بكثير من الغنائم ، منها كسوة الكعبة ، والحجر الأسود(*) . غير أن هذا الغلو وهذه الانتصارات استنفدت قوة تلك الحركة ؛ واتحد الناس لمقاومة دعوتها التى كانت تهدد الملك والنظام العام ؛ ولكن مبادئها وأساليبها العنيفة انتقلت فى القرن التالى إلى إسماعيلية ألموت(**) ، وهم المعروفون بالحشاشين .

(*) وأعيد الحجر إلى الكعبة فى عام ٩٥١ بأمر الخليفة الفاطمى المنصور .

(**) ويسمى أيضاً عش النسر . (المترجم)

الفصل السادس

الأدب

لقد كان فى الحياة والدين فى الإسلام مواقف أشبه ما تكون بالمسرحيات ، أما الأدب الإسلامى فقد خلا من هذا الصنف من صنوف الكتابة ، وهو صنف يبدو أنه غريب على العقلية السامية ، كذلك خلا ذلك الأدب كما خلا غيره من آداب العصور الوسطى من الروايات القصصية ؛ فقد كانت معظم الكتابات مما يستمع إليه الناس لا مما يقرؤونه وهم صامتون ، ولم يكن فى وسع من يهتمون بنتاج الخيال أن يرقوا إلى الدرجة التى يستطيعون أن يركزوا فيها عقولهم ذلك التركيز الذى لا بد منه لكتابة القصة المعقدة المتصلة الحلقات ، أما القصص القصيرة فكانت قديمة قدم الإسلام نفسه أو قدم آدم أبى البشر ، وكان أكثر المسلمين سذاجة ينصتون إليها فى حماسة الأطفال وتشوفهم ، أما العلماء فلم يكونوا يحسبونها أدباً ، وكانت أشهر هذه القصص القصيرة قصص بيدبا ، وقصص ألف ليلة وليلة . وقد نقلت القصص الأولى من الهند إلى فارس فى القرن السادس ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها ترجمت إلى اللغة العربية فى القرن الثامن . ثم فقد أصلها السنسكريتى ، وبقيت الترجمة العربية ، ومنها نقلت إلى ما يقرب من أربعين لغة أخرى .

يحدثنا المسعودى (المتوفى عام ٥٩٧) فى **مروج الذهب** عن كتاب فارسى يدعى **هزار أفسانة** أو **ألف قصة** وعن ترجمته العربية **ألف ليلة وليلة** ؛ وهذه على ما نعلم أول مرة ذكر فيها كتاب **ألف ليلة وليلة** . وخطة الكتاب كما يصفها المسعودى هى الخطة التى نجدها فى كتاب **ألف ليلة وليلة** العربى . وكان هذا

الإطار المحتوى على سلسلة من القصص معروفاً من قديم الزمن فى بلاد الهند ، وكان عدد كبير من هذه القصص متداولا فى العالم الشرقى ، ولربما كانت كل مجموعة منها تختلف فى محتوياتها عن غيرها من المجموعات ، ولسنا واثقين أن أية قصة فى المجموعة المعروفة لنا الآن كانت من القصص التى تحتوبها المجموعة التى يحدثنا عنها المسعودى . وحدث بعد سنين قلائل من عام ١٧٠٠ أن أرسل مخطوط غير كامل ، لا يمكن تتبع تاريخه إلى ما قبل عام ١٥٣٦ ، من بلاد الشام إلى المستشرق الفرنسى أنطوان جالان Antoine Galland ، وافتتن هذا المستشرق بخيال القصص الغريب ، وبما فيها من وصف لحياة المسلمين الداخلية ، ولعله افتتن أيضاً بما فيها من بذاءة ، فأصدر فى باريس عام ١٧٠٤ أولى تراجمها إلى اللغات الأوربية Les mille et une nuits . ونجح الكتاب نجاحاً فوق ما كان يتوقع له ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وشرع أطفال جميع الأمم يتحدثون عن السندباد البحرى ، وعن مصباح علاء الدين ، وعن على بابا واللصوص الأربعين . وخرافات بيدبا ، وقصص ألف ليلة أكثر ما يقرأه الناس من الكتب فى العالم كله إذا استثنينا الكتاب المقدس (وهو أيضاً كتاب شرقى)(*) .

والنثر الأدبى فى الكتب الإسلامية صورة من الشعر . ذلك أن المزاج العربى ينزع إلى الشعور القوى ، والآداب الفارسية تميل إلى الكلام المزخرف ، واللغة العربية التى كانت فى الوقت الذى نتحدث عنه يتكلم بها أهل البلدين تدعو إلى جعل النثر مقفى لتشابه أواخر الألفاظ طوعاً لقواعد الصرف ؛ ولهذا فإن النثر الأدبى كثيراً ما يكون مسجوعاً ؛ وكان الوعاظ ، والخطباء ، والقصاصون ، يلجأون إلى النثر المسجع ، وبهذا كتب بديع الزمان الهمذانى (المتوفى عام ١٠٠٨) مقاماته — وهى قصص كان يرويها لجماعات مختلفة عن وغد

(*) والقرآن بطبيعة الحال وهو الذى يقرؤه كله أو بعضه مسلمو العالم أجمعون . (المترجم)

أفاق أوتى من الذكاء والفكاهة أكثر مما أوتى من الأخلاق الطيبة : وكانت عقول أهل الشرق الأدنى فى ذلك الوقت تتأثر بما يصل إليها عن طريق الأذن ، شأنهم فى هذا شأن جميع الناس قبل اختراع الطباعة ، وكان الأدب عند معظم المسلمين لا يعدو أن يكون قصيدة تنشد أو قصة تروى ؛ وكانت القصائد تكتب لكى تقرأ بصوت عال أو تغنى ، وكان كل شخص فى بلاد الإسلام من الخليفة إلى الفلاح يطرب لسماعها . وقلما كان هناك شخص لا يقرض الشعر — كما كانت الحال عند طبقة السمورای فى بلاد اليابان . وكان من ضروب التسلية العامة لدى الطبقات المتعلمة أن يكمل شخص بيتا من الشعر بدأه غير ، أو يتم مقطوعة بدأها زميله ، أو ينافس مناظراً له فى ارتجال مقطوعة غنائية أو نكتة شعرية . وكان الشعراء ينافس بعضهم بعضاً فى ابتداع ضروب معقدة من الأوزان والقوافى ، وكان كثيرون منهم يقفون أواسط الأبيات الشعرية وأواخرها ، وكثرت ضروب الأوزان والقوافى فى الشعر العربى وكان لها بالغ الأثر فى نشأة القافية فى الشعر الأوربى .

ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور — لا نستثنى من هذا التعميم حضارة الصين فى أيام لى پو ، ودوفو ، ولا حضارة ڤيمار Veimar حين كان فيها « مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر » — الحضارة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية فى عدد شعرائها وثرائهم . وقد جمع أبو الفرج الإصفهانى (٨٩٧ — ٩٦٧) فى أواخر ذلك العصر كثيراً من أشعارهم فى كتاب **الأغانى** . وحسبنا دليلا على غنى الشعر العربى وتنوعه أن نعرف أن هذا الكتاب يتكون من عشرين مجلداً . وكان الشعراء ينشرون الدعايات المختلفة ، والناس يخشون هجوهم اللاذع ، والأغنياء يبتاعون مديحهم بيتا بيتا ، والخلفاء يجيزون الشعراء بالمناصب العالية وينفحونهم بالهبات السخية إذا قالوا فيهم قصائد من الشعر أو مجدوا أعمالهم أو مدحوا قبائلهم . ويحكى أن هشاما أراد مرة أن

يتذكر قصيدة من القصائد فأرسل فى طلب حماد الشاعر الراوية ، وكان من حظه أنه يذكر هذه القصيدة بأكملها ، فلما أنشدها لهشام أجازه بجاريتين وبخمسين ألف دينار(٩٧) ، وأكبر ظننا أن أحداً من شعراء هذه الأيام لن يصدق هذه القصة . وبعد أن كان الشعر العربى ينشد لبدو الصحراء ، أضحى الآن يوجه إلى قصور الخلفاء ورجال حاشيتهم ، وأصبح الكثير منه متكلفا ، أكثر ما يعنى به هو الشكل ، شديد التأنق إلى حد التفاهة ، كثير المجاملة خاليا من الإخلاص ؛ ولهذا نشبت معركة بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وأخذ النقاد يشكون وهم متألمون قائلين إنه لم يوجد شعراء عظماء إلا قبل عهد النبوة(٩٨) .

والحب والحرب أكثر مواءمة للشعر من الموضوعات الدينية ، وقلما كان شعر العرب صوفى النزعة (وإن كان هذا الحكم لا يصدق على شعر الفرس) ؛ فقد كان الشاعر العربى يفضل أناشيد القتال ، والعاطفة ، والانفعالات النفسية ؛ ولما أن اختتم قرن الفتوح الإسلامية أخذ الشعراء يستمدون وحيهم من النساء أكثر مما يستمدونه من الموضوعات الحربية والدينية ، وأخذ شعراء الإسلام يصفون مفاتن المرأة — شَعرها العطر ، وعينيها الشبيهتين بالدرتين ، وشفتيها القرمزيتين ، وأطرافها الفضية ؛ وظهرت الصحراوات وفى المدينتين المقدستين القصائد الغنائية ؛ وأصبح الأدب فى عرف الفلاسفة والشعراء يعنى آداب الحب وسلوك المحبين . وانتقل هذا المعنى عن طريق مصر وإفريقية إلى صقلية وأسپانيا ، ومنهما إلى إيطاليا وپروڤانس Provence فى فرنسا ، وانطلقت الألسن وجادت القرائح بالشعر الموزون المقفى .

واشتهر الحسن بن هانئ باسم أبى نواس — لغدائره التى كانت تنوس على كتفيه . وكان مولده فى بلاد الفرس ، ثم رحل إلى بغداد ، ونال الحظوة عند الخليفة الرشيد ، ولعله اشترك معه فى واحدة أو اثنتين من المغامرات التى تعزى إليهما فى كتاب **ألف ليلة وليلة** . وكان أبو نواس مولعاً بالخمر والنساء والغناء ،

وكثيراً ما أغضب الخليفة بإدمانه الخمر جهرة ، وبزندقته ودعارته ؛ وكثيراً ما سجنه ثم أطلقه ، وتاب أبو نواس شيئاً فشيئاً واستمسك آخر الأمر بأهداب الفضيلة ، وانتهى بأن كان يحمل المسبحة والقرآن معه أينما سار . ولكن أكثر ما كانت تحبه مجامع العاصمة هو أغانيه التى وصف فيها الخمر والفساد :

يا سليمان ! غنى ومن الراح فاسقنى
فإذا ما دارت الزجا جة خذها واعطنى
ما ترى الصبح قد بدا فى إزار مُبَيَّن
غاطنى كأس سلوة عن أذان المؤذن(٩٩)

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ ربا غفورا
ستبصر إن قدمت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيرا
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا(١٠٠)

وكان فى بلاط صغار الأمراء والسلاطين أيضاً شعراؤهم — فكان فى بلاط سيف الدولة شاعر لا تكاد تعرف عنه أوربا شيئاً ، ولكن العرب يحسبونه خير شعرائهم على الإطلاق . واسم هذا الشاعر أحمد بن الحسين ، ولكنه يشتهر عند المسلمين باسم المتنبى — أى مدعى النبوة . وقد ولد هذا الشاعر فى الكوفة عام ٩١٥ ، وتلقى العلم فى دمشق ، ثم ادعى النبوة ، فقبض عليه وأطلق بعدئذ سراحه ، وأقام فى بلاط أمير حلب . وكان كأبى نواس مستهتراً بالدين لا يصوم ولا يصلى ولا يقرأ القرآن(١٠١) ، ومع أنه لم يكن يرى أن الحياة ترقى إلى المستوى اللائق به ، فإنه كان يستمتع بها استمتاعاً يصرفه عن التفكير فى الخلود . وقد أشاد بانتصارات سيف الدولة فى شعر جمع بين قوة المعنى وجمال اللفظ إلى حد أصبح معه هذا الشعر واسع الانتشار بين قراء العربية متعذر الترجمة إلى اللغة الإنجليزية . ومن هذا الشعر بيته المشهور الذى كان سبباً فى هلاكه وهو :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وذلك أن جماعة من اللصوص هاجمته ، وأراد هو الفرار ، فذكره غلامه بهذا البيت وما يحويه من تفاخر ؛ وأراد المتنبي أن يصدق فعله قوله ؛ فحارب ومات مثخناً بجراحه (٩٦٥)[١٠٢] .

وبعد ثمان سنين من ذلك العام ولد فى معرة النعمان القريبة من حلب أبو العلاء المعرى أعجب شعراء العرب على الإطلاق . وفقد أبو العلاء بصره فى سن الرابعة على أثر إصابته بالجدرى ، ولكنه جد فى طلب العلم ، وحفظ عن ظهر قلب ما أعجبه من المخطوطات التى وجدها فى دور الكتب ، وطاف بأنحاء العالم الإسلامى ليستمع إلى المشهورين من العلماء ، ثم عاد إلى مسقط رأسه . وكان دخله السنوى خلال الخمسة عشر عاما التى أعقبت عودته لا يزيد على ثلاثين ديناراً ، أى ما يعادل اثنى عشر ريالا أمريكيا فى الشهر ، يشاركه فيها خادمه ومرشده . وأذاعت قصائده شهرته فى العالم الإسلامى ، ولكنه كاد يهلك من الجوع لأنه أبى أن يلجأ إلى المديح . وزار بغداد فى عام ١٠٠٨ وأكرم الشعراء والعلماء وفادته ، ولعله تأثر فى العاصمة بآراء بعض المتشككة ، وهى الآثار التى تتخلل بعض قصائده . وعاد منها إلى المعرة فى عام ١٠١٠ وأصبح فيها من الأغنياء ، ولكنه ظل إلى آخر أيامه يحيا حياة الحكماء البسيطة الخالية من جميع مظاهر النعيم . وكان المعرى نباتيا إلى أقصى حد ، لا يكتفى بالامتناع عن لحم الحيوان والطير بل يمتنع كذلك عن اللبن ، والبيض ، وعسل النحل ؛ فقد كان يرى أن الاستيلاء على هذه الأطعمة من الحيوان هو النهب بعينه . ولهذا السبب أيضا أبى أن يتخذ شيئا من اللباس من جلد الحيوان ، وعاب على النساء لبس الفراء ، وأشار بلبس الأحذية الخشبية[١٠٣] . ومات المعرى فى الرابعة والثمانين من العمر ، ويقول أحد أتباعه المخلصين إن مائة وثمانين شاعراً ساروا فى جنازته ، وإن أربعة وثمانين من العلماء رثوه على قبره[١٠٤] .

وأعظم ما يشهر به فى بلاد الغرب هو قصائده القصيرة البالغ عددها ١٥٩٢

قصيدة والمعروفة باللزوميات . ولم يتحدث أبو العلاء فى هذه القصائد عن النساء والحرب كما كان يتحدث عنهما زملاؤه من الشعراء ، بل عمد فى جرأة إلى الحديث عن أهم الموضوعات الأساسية فى الحياة : هل نتبع الوحى أو العقل ؟ — وهل الحياة خليقة بأن يحياها الإنسان ؟ — هل ثمة حياة بعد الموت ؟ — هل يوجد إله ؟ . . . ويجهر الشاعر من حين إلى حين بإيمانه ؛ ولكنه يقول محذراً إن هذا الجهر هو احتياط مشروع من الاستشهاد الذى لا يرغب فيه :

إذا قلت المحال رفعت صوتى وإن قلت اليقين أطلت همسى(١٠٥)

وهو يعيب فى أقواله الأمانة العلمية المطلقة ويقول :

لا تخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وإن تفعل فأنت مغرر(١٠٦)

والمعرى بصريح العبارة متشائم ، لا أدرى ، يؤمن بالعقل دون الوحى :

يرتجى الناس أن يقـــوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرســـاء
كذب الظن لا إمام سوى العـــقل مشيراً فى صبحه والمساء
. . . . . .

هل صح قول من الحاكى فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق إثمار(*)

(*) وهنا أورد الكاتب أبياتاً أخرى قال إنها من شعر أبى العلاء ، وقال فى سجل المراجع إنه نقلها من كتاب أمين الريحانى المسمى **The Quatraines of Abu el'Ala'**. وقد بحثنا أولا فيما لدينا من كتب أبى العلاء : اللزوميات ، وسقط الزند ، ورسالة الغفران فلم نعثر على هذه الأبيات ، وقد وجدنا فى كتاب أمين الريحانى الأبيات التى أوردها المؤلف وما بعدها ، وقوله إنها مترجمة عن اللزوميات طبعة القاهرة سنة ١٨٩١ . وأعدنا البحث فلم نعثر على الأبيات فى هذه الطبعة . وأخيرا وجدنا الأبيات التى نقلها مؤلف هذا الكتاب وما جاء بعدها فى كتاب أمين الريحانى وجدناها فى شعر محيى الدين بن عربى وهى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
فأصبح قلبى قابلا كل صورة فرعى لغزلان وبيت لأوثان
ودير لرهبان وكعبـــة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وهو ينـــدد بعلماء الدين الذين يسخرونه لمآرب الإنسان الدنيئة ، والذين يملؤون المساجد بالرعب حين يخطبون ، ولكنهم ليسوا فى مسلكهم خيراً من الذين يحتسون الخمر فى الحانات على نغمات المغنين .

لا تطيعن قوماً ما ديانتهم　　إلا احتيال على أخذ الإتاوات

إنما هذه المذاهب أسباب　　لجذب الدنيا إلى الرؤســاء

كذب يقال على المنابر دائماً　　أفلا يميد لمـا يقال المنبر

رويدك قد غررت وأنت حر　　بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً　　ويشربها على عمـــد مساء
تحساها فمن مزج وصرف　　يعـــل كأنما ورد الحساء

طلب الحسائس وارتقى فى منبر　　يصف الحساب لأمة ايهولها
ويكون غير مصدق بقيامة　　أضحى يمثل فى النفوس ذهولها(١٠٨)

ومن أقواله أن أحط الناس فى وقته هم الذين يشرفون على الأماكن المقدسة فى مكة . فهم لا يتورعون عن أن يرتكبوا أى إثم فى سبيل المال ، وينصح مستمعيه بألا يضيعوا أوقاتهم فى الحج(١٠٩) وأن يقنعوا بعالم واحد .

وفى بطحاء مكة شر قوم　　وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وإن رجال شـيبة سادنيها　　إذا راحت لكعبتها الجمارى
قيام يدفعون الناس(*) شفعاً　　إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزوائف أولجوهم　　وإن كانوا اليهود أو النصارى

— والأبيات الإنجليزية التى أوردها المؤلف منقولة من كتاب أمين الريحانى ، تكاد تكون ترجمة حرفية لهذه الأبيات .　　(المترجم)

(*) ويروى يدفعون الوفد .　　(المترجم)

وما حجى إلى أحجـــار بيت كؤوس الخمر تشرب فى ذراها

وما الركن فى قول ناس لست أذكرهم إلا بقيـــة أوثان وأنصاب

لاحس للجسم بعد الروح نعلمه فهل تحس إذا بانت عن الجسد(١١٠)

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا(*)
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك(١١١)

ويصل آخر الأمر إلى هذه النتيجة .

وإن جُعلت بحكم الله فى خزف يقضى الطهور فإنى شاكر راضى (١١٢)

وهو يؤمن بوجود إله حكيم قادر على كل شىء ، ويعجب من الطبيب الذى ينكر وجود الخالق بعد أن درس التشريح .

عجبى للطبيب يلحد فى الخا لق من بعد درسه التشريحا (١١٣)

لكنه حتى فى هذه النقطة يثير بعض الصعاب فيقول :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها واللوم يلحقنى وأهل نحاسى
عنب وخمر فى الإناء وشارب فمن الملوم أعاصر أم حاسى

ويقول فى سخرية شبيهة بسخرية ڤلتير :

رأيت سجايا الناس فيها تظالم ولاريب فى عدل الذى خلق الظلما(١١٤)

ثم ينفجر غضبه كما ينفجر غضب ديدرو Diderot فيقول :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء(١١٥)

(*) ومثل هذا قوله :

ضحكنا وليس ما يوجب الضحـ ـك لدينا بل ما يهيج انتحابا (المترجم)

وساءه ما بدا له من كذب الناس وقسوتهم فاعتزل الناس وغلب عليه التشاؤم ، فكان عند المسلمين شبيها بتيمن الأثينى(*) ؛ يرى أن لا أمل فى إصلاح الناس لأن شرور المجتمع ناشئة من طبائع الخلق :

كتب الشقاء على الفتى فى عيشه ... وليبلغن قضـــاءه المحتوما

فما أذنب الدهر الذى أنت لائم ... ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا(١١٦)

رب متى أرحل عن عالمى ... فأنت بالنـاس خبير عليم

رب متى أرحل عن هذه الدنيـا ... فقد أطلت المقام

ولهذا فإن خير ما يفعله الإنسان أن يعتزل العالم ويعيش وحيداً لا يلقى إلا صديقا واحداً أو اثنين ، وأن يحيا كما يحيا الحيوان الوديع بعيداً عن الخلق .

ويقول : لقد كان أفضل من هذا لو أن الإنسان لم يولد لأنه إذا ولد قاسى العذاب والمحن حتى يبسط عليه الموت لواء السلام(١١٧) :

وما العيش إلا علة برؤها الردى ... فخلى سبيلى أنصرف لطياتى

والعيش داء وموت المرء عافية ... إن داؤه يتوارى شخصه حسما

والعيش سقم للفتى منصب ... والموت يأتى بشفاء السقام

على الموت يجتاز المعاشر كلهم ... مقيم بأهليه ومن يتغرب

وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبتغى ... فتأكل من هذا الأنام وتشرب

كأن هلالا لاح للطعن فيهم ... حناه الزدى وهو السنان المجرب

كأن ضياء الفجر سيف يسله ... عليهم صباح فى المنايا مذرب

وليس فى وسعنا أن ننجو من منجل الموت ، ولكن فى وسعنا أن نفوّت عليه

(*) انظر قصة تيمن الأثينى فى مسرحية شيكسپير المعروفة بهذا الاسم ، أو فى قصته كما رواها تشارلس لام مترجمة فى كتابنا « قصص من شيكسپير » . (المترجم)

غرضه بألا نلد له أطفالا : وفى ذلك يقول أبياتاً من الشعر لا تفترق عن أقوال المؤمنين أشد الإيمان بأقوال شوبنهور :

وإذا أردتم للبنين كرامة فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر (*)(١١٨)

وقد عمل هو بهذه النصيحة ، وكتب بنفسه قبريته وهى أشد القبريات مرارة وأكثرها إيجازاً وأعظمها حكمة :

هـــذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد(**)(١١٩)

ولسنا نعرف كم من المسلمين كانوا يشاركون المعرى فى تشككه ؛ ذلك أن عودة العقائد السنية القوية بعد أيامه كانت أشبه برقابة مقصودة أو غير مقصودة على ما انحدر إلى الأجيال التالية من أدب ذلك العصر ، وقد يؤدى بنا هذا إلى الاستخفاف بما كان فى العصور الوسطى من تشكك فى العالم الإسلامى كما حدث فى العالم المسيحى. وبلغ الشعر العربى عند المتنبى والمعرى ذروتهما ، فلما انقضى عهدهما علا شأن البحوث الدينية وسكن صوت الفلسفة ، فصبغ هذا وذاك الشعر العربى صبغة جديدة تتسم بعدم الإخلاص ، وتَصَنُّع العاطفة ، وتكلف الأناقة اللفظية فى قصائد غثة تدور حول شئون بلاط الأمراء . وفى هذا الوقت عينه كانت نهضة الفرس ، وبعثها ، وتحررها من حكم العرب تثير حمية الأمة وتخلق فيها نهضة حقة . ولم تكن اللغة الفارسية قد استسلمت للغة العربية استسلاماً

(*) ومثلها :

أرى ولد الفتى عبئاً عليه لقد سعد الذى أمسى عقيما
أما شاهدت كل أبى وليد يؤم طريق حتف مستقيما
فإما أن يربيه عدواً وإما أن يخلفه يتيما

أرى النسل ذنباً للفتى لا يناله فلا تنكحن الدار غير عقيم

(**) لقد اعتمد المؤلف فى إيراد هذه الأبيات وما سبقها على كتب نكلسون الواردة فى ثبت المراجع وهى جميعاً كتب مفيدة ممتعة يرجع إليها الفضل فيما يعرفه علماء الغرب عن روعة الشعر الإسلامى وتنوع أغراضه .

كلياً بل بقيت يتحدث بها الشعب ؛ فلما حل القرن العاشر أخذت هذه اللغة تثبت وجودها بالتدريج ، وتعود كما كانت لغة الحِكَم والأدب . وكانت بذلك مظهراً لاستقلال الأمة الثقافى فى عهد الأمراء الساسانيين والغزنويين . وظلت سائرة فى هذا الطريق حتى أضحت هى اللغة الفارسية الجديدة فى هذه الأيام ، بعد أن استمدت ثروة طيبة من الألفاظ العربية ، وبعد أن استخدمت الخط العربى الجميل . وكان من أعظم مظاهر هذه النهضة الحديثة عمائرها الفخمة وشِعرها العظيم . وأضاف شعراء إيران إلى القصيدة والقطعة ، وإلى شِعر الغزَل المثنوىَ أو الشعر القصصى والرباعيات . وما لبث كل شىء فى فارس — من وطنية ، وعاطفة ، وفلسفة ، ولواط ، وصلاح — أن عبّر عنه الشعر .

وبدأت هذه النهضة بالرودكى (المتوفى عام ٩٥٤) الذى كان يرتجل الشعر وينشد الأغانى ، ويعزف على القيثار فى بلاط السامانيين ببخارى . وفى هذا البلد نفسه ، وبعد جيل من ذلك الوقت طلب الأمير نوح بن منصور إلى الشاعر الدقيقى أن يصوغ **الخرينامة** أو **كتاب الملوك** شعراً . وكان دانشوار (حوالى عام ٦٥١) قد جمع فى هذا الكتاب قصص بلاد الفرس القديمة . وما كاد الدقيقى يتم كتابة ألف بيت حتى طعنه أحد عبيده المقربين طعنة قضت على حياته . وقام الفردوسى بالعمل بعده وأتمه وأصبح هومر بلاد الفرس .

وولد أبو القاسم منصور (أو حسن) فى مدينة طوس (قرب مشهد) حوالى عام ٩٣٤ ، وكان والده يشغل منصباً إدارياً فى بلاط السامانيين ، وخلف لولده بيتاً ريفياً فى بزاعة بالقرب من طوس . وكان أبو القاسم يقضى وقت فراغه فى البحث عن الآثار القديمة . واسترعى كتاب **الخرينامة** انتباهه فاعتزم أن يحوِّل هذه القصص النثرية إلى ملحمة قومية ، وسمى كتابه **الشاهنامة** ، أى كتاب الملوك ، واتخذله حسب عادة تلك الأيام اسماً مستعاراً هو الفردوسى ، ولعله اشتق ذلك الاسم من غياض ضيعته . وأتم الفردوسى ملحمته فى صورتها الأولى بعد

خمس وعشرين سنة من الكدح المتواصل ، ثم سافر بها إلى غزنة (٩٩٩ ؟) راجياً أن يهديها إلى أميرها محمود الرهيب :

ويؤكد لنا أحد شعراء الفرس الأقدمين أنه كان في غزنة « أربعمائة شاعر لا يفارقون مجالس السلطان محمود » . ولو صح هذا لكان وجود هؤلاء الشعراء عقبة كأداء في سبيل الفردوسي ، ولكنه مع هذا أفلح في استرعاء اهتمام الوزير فجاء بالمخطوط الضخم إلى السلطان . وتقول إحدى الروايات إن محموداً هيأ للشاعر مسكناً مريحاً في قصره ، وأمده بقدر ضخم من المادة التاريخية ، وأمره أن يضمها إلى ملحمته . وتجمع كل الروايات التي وصلتنا من هذه القصة على اختلاف صورها أن محموداً وعده أن يعطيه ديناراً ذهبياً (٤٫٧٠ دولارات) نظير كل بيت من القصيدة في صورتها الجديدة . وظل الفردوسي يكدح زمناً لا نعرف طوله ؛ بلغت بعده القصيدة (حوالى عام ١٠١٠) صورتها النهائية ، واشتملت على ٦٠٫٠٠٠ بيت وجيء بها إلى السلطان . وأوشك محمود أن يبعث إلى الفردوسي المبلغ الموعود ، ولكن بعض بطانته استكثروا العطاء ، وأضافوا إلى هذا قولهم إن الفردوسي زنديق شيعي ومعتزل . واستمع لهم محمود وبعث إلى الشاعر بستين ألف درهم فضي (٣٠٫٠٠٠ ريال أمريكي) . وغضب الشاعر وأراد أن يظهر غضبه واحتقاره فقسم المبلغ بين خادم حمام وبائع شراب ثم فر إلى هراة ، حيث اختفى ستة أشهر في حانوت بائع كتب ، حتى يئس من العثور عليه عمال محمود الذين أمرهم بالقبض عليه . ثم لجأ الفردوسي إلى شهريار أمير شيرزاد(*) في طبرستان ، ونظم قصيدة يهجو فيها محموداً هجواً لاذعاً . وخشي شهريار غضب

(*) ليس شيرزاد أو شهرزاد اسم إقليم ولعل الأمر قد اختلط على المؤلف أو على من رجع إليه من المؤلفين . ولم يرد شيرزاد إلا في رواية محمد بن عبد الوهاب القزويني في حواشي جهار مقاله إذ يقول إنه وجد في أصل الكتاب شهرزاد أو شيرزاد مكان شهريار . انظر مقدمة الشاهنامة للدكتور عبد الوهاب عزام في هذا وفي قصة يوسف وزليخا ففيها تفصيل واف عن قصة هذا الشاعر وبحث علمي قيم في هذا الموضوع . (المترجم)

السلطان فابتاع القصيدة بمائة ألف درهم وأتلفها . وإذا جاز لنا أن نصدق هذه الأرقام ، ونعتقد بصحة تقديرنا إياها بنقود هذه الأيام ، حكمنا من فورنا أن الشعر كان من أكثر الأعمال إدراراً للربح فى فارس فى العصور الوسطى . وانتقل الفردوسى بعدئذ إلى بغداد وكتب فيها قصة شعرية طويلة هى قصة **يوسف وزليخا** ، ثم عاد إلى طوس وكان وقتئذ شيخاً فى السادسة والسبعين من العمر . وبعد عشر سنين من عودته سمع محمود بيتاً من الشعر فأعجب بقوة معناه وجزالة لفظه ، فسأل عن قائله ، ولما علم أنه من شعر الفردوسى ندم على أنه لم يكافئ الشاعر بما وعده به ، وأرسل إليه قافلة من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار من النيلج ، ومعها رسالة اعتذار منه ، ولما دخلت القافلة مدينة طوس التقت فيها بجنازة الشاعر (١٠٢٠ ؟) .

وتعد الشاهنامة من أعظم الأعمال فى الآداب العالمية فى حجمها إن لم تكن فى غيره . وإن من النبل بحق أن يترك شاعر الموضوعات التافهة ، والأعمال اليسيرة ، ويقضى خمسة وثلاثين عاماً من حياته يروى فيها قصة بلده فى ١٢٠٫٠٠٠ بيت من الشعر — فكانت القصيدة بذلك أطول من الإلياذة والأوذيسة مجتمعتين . فهاهو ذا شيخ طاعن فى السن جن بجنونه بوطنه ، وشغف حبا بكل ما حوته سجلاته من تفاصيل ، خرافة كانت أوحقيقة . وتصل الملحمة إلى نصفها قبل أن يصل بها الشاعر إلى العصور التاريخية . ويبدأها بالشخصيات الأسطورية الواردة فى الأبستاق ، ويحدثنا عن جيومرث ، آدم الديانة الزردشتية ، ثم عن جمشيد العظيم حفيد جيومرث « الذى حكم العالم ٧٠٠ سنة . . . والذى سعد للعالم بحكمه ، ولم يكن يُعرف فى أيامه موت ولاحزن ولا ألم » . ولكن جمشيد بعد أن مرت به بضعة قرون « باض الشيطان فى رأسه وفرخ ولوى جيده عن طاعة ملاك الرقاب ، متعرضاً بغمط نعمه لقاصمة العقاب » « وظن أنه ليس على ظهر الأرض سواه ، وادعى أنه إله ، وبعث بصورته لكى يعبدها الناس »[١٢١] . ونصل أخيراً

إلى بطل الملحمة رستم بن زال أحد أمراء الإقطاع فى تلك الأيام . ولما بلغ رستم من العمر خمسمائة عام وقع زال فى هوى جارية شابة فولدت منه أخا لرستم . ويخدم رستم ثلاثة ملوك وينجيهم من الموت ، ثم يهجر حياة القتال حين تبلغ سنه أربعمائة عام . ويطول عمر جواده الأمين الرخش كما يطول عمر سيده أو ما يقرب منه ، ويكاد يبلغ من البطولة ما بلغه ، ويلتقى هذا الجواد من الفردوسى الحب والدعابة اللذين يلقاهما الجواد الأصيل من كل فارسى . وفى الشاهنامة قصص حب جميلة ، وفيها بعض ما فى شعر شعراء الفروسية الغزلين فى أوربا فى العصور الوسطى من تعظيم للنساء . فيها صور ساحرة للنساء البارعات الجمال — منها صورة للملكة سوذابة التى كانت تتحجب حتى لا يرى أحد جمالها ، والتى كانت تسير مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب(١٢٢) . ولكن الحب ليس له شأن كبير فى حياة رستم ، لأن الفردوسى يرى أن عاطفة الحب الأبوى والبنوى يمكن أن تكون أعظم وقعاً فى النفوس من عاطفة الحب الجنسى . بيد أن رستم يقع أثناء إحدى حروبه البعيدة فى حب فتاة تركية تدعى تهمينة ، ثم تختفى عن عينه فلا يقف على أثرها ، ثم تربى ابنهما سهراب والحزن يملأ قلبها والكبرياء يرفع رأسها بين أترابها ، وتحدث الشاب عن أبيه العظيم الذى لا تعرف مقره ، ويلتقى الأب والابن فى حرب بين الترك والفرس ، ويقف كلاهما ليقاتل الآخر دون أن يعلما حقيقية أمرهما . ويعجب رستم بشجاعة الصبى الوسيم ، ويعرض عليه أن يحفظ عليه حياته ؛ فيرفض الغلام هذا العرض بازدراء ، ويقاتل قتال الأبطال ، ويصاب بجرح مميت . ويقول وهو يحتضر إن أشد ما يحزنه أنه لم ير أباه رستم ، ويدرك المنتصر أنه قتل ابنه . ويعدو جواد سهراب بغير فارسه حتى يدخل معسكر الترك ويصل الخبر إلى والدته فى منظر من أجمل مناظر الملحمة :

تئن وتجأر جهد الحزين ... وينتابها الغشى فى كل حين
أطالت بكاء ابنها والنحيبا ... فأجرت من الناس دمعاً سكوبا

وخرت على الأرض جمراً خمد　　كأن بها دمها قد جمد
وعادت ترجع تحنانها　　وتذكى على الابن أحزانها
وجاءت إلى طرفه الطائر　　إلى زينـــة الزمن الناضر
فلزت إلى رأسه صدرها　　يرى الناس فى عجب أمرها
وجاءت لحلته فى كمد　　تعانقها كابنها المفتقـــد(*)

والقصة كلها غاية فى الوضوح يتنقل القارئ فيها تنقلا سريعا من حادثة إلى حادثة ، ولا يحس بوحدتها إلا حين يشعر بوجود الوطن المحبوب فى كل سطر من سطورها وإن كان لا يبصره بعينه : ونحن ، الذين لا نجد لدينا من الفراغ ما كان يجده الناس قبل أن تخترع تلك الوسائل الكثيرة التى توفر عليهم أوقاتهم ، لا نجد متسعاً من الوقت نقرأ فيه كل أبيات القصيدة وندفن فيه كل ملوكها ؛ ولكن هل منا من قرأ كل سطر من أسطر الإلياذة أو الإنياذة ، أو المسلاة المقدسة ، أو الفردوس المفقود ؟ إن هذه الملاحم القصصية لا يستطيع قراءتها إلا الذين أوتوا القدرة على هضمها . أما نحن فبعد أن نقرأ مائتى صفحة من صفحات الشاهنامة نمل من قراءة أخبار انتصارات رستم على الشياطين ، والوحوش ، والسحرة ، والأتراك . ولكن سبب هذا الملل أننا لسنا إيرانيين ، لم نسمع إلى أنغام الشعر الفارسى الأصيل الرنانة العذبة ، ولا نتأثر بها كما يتأثر بها الفرس الذين أطلقوا اسم رستم على ثلثمائة قرية فى ولاية واحدة من بلادهم . وقد احتفل العالم المتمدين فى آسية وأوربا والأمريكتين فى عام ١٩٣٤ بالعيد الألفى للشاعر الذى ظل كتابه الضخم غذاء لروح الشعب الإيرانى مدى ألف عام :

(*) هذه الأبيات منقولة عن الترجمة العربية للشاهنامة من الفصل الذى أغفله الفتح بن على البندارى وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام .　　(المترجم)

obeikandi.com

الفصل السابع

الفن (*)

لما فتح العرب بلاد الشام لم يكن لديهم من الفنون سوى الشعر ؛ ويقال إن النبي حرم فنى النحت والتصوير لأنهما من قبيل عبادة الأوثان — كما نهى عن الموسيقى ، ولبس الحرير الثمين ، والتحلى بالذهب والفضة لأنهما من أسباب التنعم المؤدى إلى الانحلال ؛ ومع أن العرب أخذوا يتحللون شيئا فشيئا من هذا التحريم ، فإن الفن الإسلامى فى ذلك العهد الأول كان ينحصر فى فنون العمارة ، والخزف ، والزركشة . يضاف إلى هذا أن العرب أنفسهم كانوا إلى عهد قريب بدواً أو تجاراً ، ولم يكونوا ذوى براعة فنية ناضجة ؛ وكانوا يعترفون بقصورهم فى هذا الميدان ، ولذلك لجأوا إلى الأشكال والتقاليد الفنية المتبعة فى بيزنطية ، ومصر ، والشام ، وبلاد العراق ، وإيران ، والهند ، فعدلوها بما يوائم طبيعتهم ، كما لجأوا إلى الفنانين والصناع من أهل تلك البلاد . من ذلك أن نقوش قبة الصخرة فى بيت المقدس وعمارة مسجد الوليد الثانى فى دمشق كانت بيزنطية خالصة . وفيما يلى هذه البلاد من جهة الشرق اتخذ العرب حليات القرميد التى كانت متبعة فى بلاد أشور وبابل القديمة ، كما اتخذوا أشكال الكنائس الأرمنية النسطورية ؛ وبعد أن دمر المسلمون فى بلاد الفرس كثيراً من الأعمال الساسانية الأدبية والفنية تنبهوا إلى مزايا مجموعات العمد ، والأقواس

(*) نحن مدينون بهذا الفصل إلى كتاب « نظرة شاملة فى الفن الفارسى » **Survey of Persian Art** . الذى نشره آرثر أيهام پوپ **Arthur Uphan Pope** ، وبخاصة للفصول التى كتبها بنفسه . وإن عمله العظيم فى هذا الميدان الذى أجاده وأخلص فيه ، والذى يضارع فى عظمته ما عمله چيمس هنرى برستد فى تاريخ مصر لمن الأعمال الخالدة التى تشهد له بدقة البحث وغزارة العلم وحب الإنسانية فى أجلى مظاهرها .

المستدقة والعقود ، والنقوش المكونة من أوراق النبات والأشكال الهندسية التى أثمرت آخر الأمر طراز الزخرفة العربى المعروف . ولم تكن هذه النتيجة تقليداً محضاً ، بل كانت تركيباً بارعا من أشكال مختلفة لا ينقص من شأنها ما أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم . وتخطى الفن الإسلامى الذى انتشر من قصر الحمراء فى الأندلس إلى التاج محال فى الهند كل حدود الزمان والمكان ، وكان يسخر من التمييز بين العناصر والأجناس ، وأنتج طرازاً فذاً ولكنه متعدد الأنواع ، وعبّر عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فياضة لم يفقها شىء من نوعها حتى ذلك الوقت .

ويكاد فن العمارة الإسلامية ، كمعظم فنون العمارة فى عصر الإيمان ، أن يكون كله فنا دينيا خالصا . ذلك أن مساكن البشر كانت تقام ليقضوا فيها حياتهم الدنيوية القصيرة الأجل ؛ أما بيوت الله فكانت ، من داخلها على الأقل ، نماذج من الجمال الخالد . غير أننا مع هذا نسمع عن قناطر ، وقنوات لجر مياه الشرب ، وفساقى ، وخزانات لمياه الرى ، وحمامات عامة ، وقلاع ، وأسوار ذات أبراج وإن لم يبق من آثار هذه كلها إلا القليل . وقد أقامها مهندسون معماريون ، كان الكثيرون منهم فى القرن الأول بعد الفتوح الإسلامية من المسيحيين ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت فيما بعد من المسلمين . ولما جاء الصليبيون إلى بلاد المسلمين وجدوا مبانى حربية ممتازة فى حلب ، وبعلبك ، وغيرها من مدن الإسلام فى الشرق ، وعرفوا هناك فوائد الأسوار ذات المزاغل ، وأخذوا عن أعدائهم كثيراً من الأفكار التى أقاموا على أساسها حصونهم وقلاعهم المعدومة النظير ، ولقد كان قصر إشبيلة ، وقصر الحمراء فى قرطبة حصنين وقصرين معاً .

ولم يبق من قصور بنى أمية إلا القليل . ومن هذا القليل الباقى بيت ريفى فى قصير عمرة بالصحراء الواقعة فى شرق البحر الميت ، وتكشف بقاياه عن حمامات ذات قباب ، وجدران ذات مظلمات . ويؤكد لنا المؤرخون أن قصر عضد الدولة

فى شيراز كان يحتوى على ثلثمائة وستين حجرة واحدة منها لكل يوم من أيام السنة ، وقد طليت كل حجرة بطلاء مكون من مجموعة فذة من الألوان ، وخصصت منها واحدة للمكتبة ، وكانت حجرة رحبة يبلغ ارتفاعها طابقين ، ذات بواك وعقود ، ويقول عنها أحد مؤرخى الإسلام المتحمسين إنه لم يكن ثمة كتاب فى أى موضوع من الموضوعات لا تحتوى المكتبة نسخة منه(١٢٤) . ولسنا نشك فى أن للخيال أكبر نصيب فيما وصفت به شهرزاد مدينة بغداد ، ولكنه وصف يصور ما كانت عليه فخامة النقوش فى داخل القصور أصدق تصوير(١٢٥) . وكان لأغنياء المسلمين بيوت فى الريف وقصور فى المدن . وكانت لهم فى المدن نفسها حدائق كبرى ، أما بيوتهم فى الريف فكانت حدائقها « جنات » حقة — فيها بساتين ذات عيون ، وجداول ، وفساق ، وبرك مبطنة بالقرميد ، وأزهار نادرة ، وظلال ، وأشجار فاكهة ونُخل ، وكانت تحتوى عادة على سرادق يستمتع فيه أهل القصر بالهواء الطلق ، دون أن يضايقهم وهج الشمس . وكان الدين فى فارس دين أزهار ؛ فقد كانت تحتفل بأعياد الورد احتفالات تحوى جميع مظاهر الأبهة والفخامة ، وطبقت شهرة ورد شيراز وفيروزباد جميع أرجاء العالم ، وكانت الورود ذوات المائة من الأوراق من الهدايا التى يحمدها لمهديها الخلفاء والملوك(١٢٦) .

وكانت بيوت الفقراء وقتئذ ، كما هى الآن ، أبنية مستطيلة الشكل ؛ مقامة من اللبن الملتصق بالطين ، سقفها خليط من الطين ، وأعواد النبات ، وغصون الأشجار ، وجريد النخل ، والقش . وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعاً تشتمل على فناء داخلى مكشوف ، ذى فسقية ، وشجرة فى بعض الأحيان ؛ وكانت تحتوى أحياناً على طائفة من العمد الخشبية ، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات . وقلما كانت البيوت تبنى على الشارع أو تطل عليه ، لأنها كانت حصوناً للعزلة ، تقام للأمن والسلام ؛ وكان لبعضها أبواب سرية ، يهرب منها سكانها من فورهم إذا هوجموا أو أريد اعتقالهم ، أو يدخل منها الحبيب سراً(١٢٧) .

وكان فى كل البيوت ، عدا بيوت أفقر الناس ، آجنحة خاصة بالنساء ، لكل منها فى بعض الأحيان فناء مستقل . وكانت بيوت الأغنياء خالية من أنابيب الماء ، الذى يحمل إليها من خارجها كما تحمل الفضلات منها . وكانت بعض البيوت الحديثة الطراز تؤلف من طابقين تتوسط الواحد منهما حجرة لجلوس الأسرة عامة تعلوها قبة ، وفى الطابق الثانى منها شرفة تطل على فناء البيت . ولم يكن بيت من البيوت عدا أفقرها يخلو من مشربية من الخشب تدخل الضوء ، وتمنع حرارة الشمس ، وتمكن من بداخل البيت أن يطلوا على خارجه دون أن يراهم من بالخارج . وكثيراً ما كانت هذه المشربيات متقنة النحت ، وكانت هى النماذج التى صنعت على غرارها الستر الحجرية أو المعدنية التى ازدانت بها القصور والمساجد فيما بعد . ولم يكن بالبيت مدفأة ثابتة فى جدرانه ، بل كان يدفأ بموقد نحاسى متنقل يحرق فيه الفحم الخشبى : وكانت الحجرات تجصص وتطلى عادة بألوان متعددة . وكانت الأرض تفرش بطنافس من نسيج اليد ، وقد يكون عليها كرسى أو كرسيان ، ولكن المسلمين كانوا يفضلون أن يتربعوا فوق الطنافس . وكانت أرض الحجرة ترتفع بجوار الجدران فى ثلاث نواح منها بقدر قدم ، أو ما يقرب منه ليتكون من ذلك ديوان يفرش بالوسائد . ولم تكن فى هذا النوع من البيوت حجرة خاصة بالنوم ، وكان فرش النوم مكوناً من حشية تطوى فى أثناء النهار وتوضع فى مكان لجاص كما يفعل أهل اليابان فى هذه الأيام . وكان أثاث البيت بسيطاً : يتألف من بضع مزهريات ، وآنية المطبخ ، ومصابيح ، وكوة للكتب فى بعض الأحيان .

وكان حسب المسلم التقى الفقير أن يكون المسجد جميلا ، وكان ينفق فى تشييده جهده وماله . ويجمع فيه فنونه وصناعاته ويضعها كالطنفسة بين يدى الله ، وكان فى وسع الناس جميعاً أن يستمتعوا بهذا الجمال وبتلك العظمة ، وكان

المسجد يقام عادة بالقرب من سوق المدينة يسهل الوصول إليه من كافة أنحائها . ولم يكن عادة فخماً ذا روعة وبهاء من خارجه . وإذا استثنينا واجهته الأمامية فإنه لم يكن يسهل تمييزه فى بعض الأحيان من المبانى المجاورة له ، وقد يكون أحياناً ملتصقاً بها التصاقاً ، وقلما كان يشيد من مواد أفخم من الآجر المطلى بالمصيص . وقد حدد شكله الغرض الذى أقيم من أجله : فكان يتألف من بهو رباعى الشكل يتسع للمصلين ، ومن حوض أوسط ونافورة للوضوء ، تحيط بها إيواناته ذات البواكى لوقاية المصلين وإظلالهم ، وليتلقوا فيها الدروس ، وفى ناحية الصحن المتجهة إلى مكة كان يقوم بناء المسجد الأصلى ، وهو فى العادة قسم مسور من الرواق . وكان هذا القسم أيضاً ذا شكل رباعى يمكن المصلين من أن يقفوا صفوفاً متراصة متجهين أيضاً إلى مكة . وقد يكون فوق هذا الصرح قبة ، تكاد تبنى فى جميع الأحوال من الآجر ، تبرز كل طبقة منها عما تحتها بمقدار قليل نحو الداخل وتطلى بالجص لإخفاء هذا البروز[١٢٨] . وكان الانتقال من القاعدة الرباعية إلى القبة المستديرة يتم كما يتم فى العمارة الساسانية أو البيزنطية بأن تتوسطهما فى القبة عدة أكتاف مثلثة الشكل بين عقدين متعامدين ، أو سلسلة من العقود الحجرية الصغيرة تقام عليها جوانب القبة . وأهم ما تمتاز به عمارة المساجد هو المئذنة ، والراجح أن المسلمين فى بلاد الشام قد أخذوا فكرة المئذنة من الزجورات — الصرح — البابلى وبرج الجرس فى الكنائس المسيحية ، وأخذ الهنود المسلمون الشكل الأسطوانى من بلاد الهند ، وتأثر مسلمو إفريقية فى تخطيطها بمنارة الإسكندرية ذات الأركان الأربعة[١٢٩] . وليس ببعيد أن تكون الأبراج ذات الأركان الأربعة فى المساحة التى أقيم عليها الهيكل القديم فى دمشق ، ذات أثر فى شكل المئذنة[١٣٠] ، وكانت فى هذا العهد الأول بسيطة خالية فى أغلب الأحيان من الزخرف ، ولم تصل إلا فى القرون المتأخرة إلى ما وصلت إليه من الدقة والارتفاع ، أو نحو ما احتوته من الشرفات الرقيقة الهشة ،

والبواكى الزخرفية ، والسطوح القاشانية ، التى أنطقت فرجسون Fergusson بقوله « إنها أعظم الأبراج رشاقة فى عمارة العالم كله »(١٣١) .

وقد احتفظ المسلمون لداخل المسجد بأبهج الزخارف وأجملها وأكثرها تنوعاً ، احتفظوا لهذا الداخل بالفسيفساء وقطع القرميد البراقة لأرض المسجد ومحرابه ؛ وبالزجاج ذى الأشكال والألوان البديعة لنوافذه ومصابيحه ؛ وبالطنافس الغالية والبسط الفخمة تفرش على أرضه للصلاة ؛ وبألواح الرخام الجميل الألوان تثبت على الأجزاء السفلى من الجدران ؛ وبالأفاريز الجميلة ذات الكتابة العربية حول المحاريب والطنف ؛ وبالنقوش الجميلة فى الخشب أوالعاج أو المصنوعة مَن المعدن فى الأبواب ، والسقف ، والمنابر ، والسجف . . . أما جسم المنبر نفسه فكان يصنع من الخشب تبذل أعظم العناية فى نحته ونقشه وتطعيمه بالعاج والأبنوس . وبالقرب من المنبر توجد الدكة المقامة على عمد صغيرة وعليها نسخة من كتاب الله . وكان الكتاب نفسه بطبيعة الحال أنموذجاً لجمال الخط وروعة الفن الدقيق . ويجاور المنبر القبلة وهى جزء داخل فى جدار المسجد لعله مأخوذ من القبا فى الكنائس المسيحية . وقد أفرغ الصناع والفنانون كل جهودهم فى تزيين هذا المحراب حتى كان يضارع المذبح أو المحراب المحيط به فى الكنائس والهياكل ، فجملوه بالقاشانى والفسيفساء ، وصور أوراق الشجر وأزهاره ، والنقوش البارزة ، والأنماط الجميلة ، ذات الألوان البديعة من الآجر ، والجص ، والرخام ، والطين المحروق ، والقاشانى .

وأكبر الظن أننا مدينون بما بلغه فن الزخرفة من عظمة وفخامة إلى تحريم السلميين تمثيل صور الإنسان والحيوان فى الفن ! فكأن الفنانين المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا التحريم فاخترعوا هذا الفيض الغامر من الأشكال غير البشرية أو الحيوانية ، وأخذوا ما كان منها موجوداً عند غيرهم . فبحث الفنان فى أول الأمر عن منفذ لمواهبه الفنية فى الأشكال الهندسية — الخط ، والزاوية ، والمربع ،

والمكعب ، والكثير الأضلاع ، والمخروط ، والشكل اللولبي ، والقطع الناقص ، والدائرة ، والكرة ؛ وكرر هذه الأشكال كلها وركب منها مئات التراكيب ، وأنشأ منها الدوامات ، والأربطة ، والخطوط المتشابكة المتداخلة ، والنجوم . ولما انتقل إلى الأشكال النباتية عمد إلى المواد المختلفة ، فصور من مختلف المواد ، تيجاناً ، وكروما ، وأزهار البشنين . والكُنْكُر ، وخوص النخل وجريده . فلما جاء القرن العاشر مزج هذه كلها فأنشأ منها الزخرف العربي الذائع الصيت ، وأضاف إليها كلها حلية فذة كبرى هي الكتابة العربية . ذلك أنه عمد في العادة إلى الحروف الكوفية فأطالها إلى أعلى أو مدها على الجانبين ، أو نمقها بالذيول والنقاط ، حتى استحالت الحروف الهجائية على يديه تحفة فنية ذات روعة وجمال . ولما تحلل الناس بعض الشيء من القيود والمحرمات الدينية أدخل الفنان أنواعا جديدة من الزينة بأن رسم طير السماء ، وحيوان الحقل ، أو ابتدع أشكالا عن الحيوانات المختلفة لا وجود لها إلا في مخيلته . واستطاع بفطنته وشغفه بالزينة أن يسمو بكل شكل من أشكال الفن — النسيفساء ، والنقوش الصغيرة على العاج ونحوه ، والخزف ، والأقمشة ، والبسط . وكان النقش في كل حالة تقريبا تؤلف بين أجزائه وحدة منظمة ، تسيطر عليها صورة رئيسية ، أو موضوع رئيسي ، ينمو ويتطور من الوسط إلى الأطراف أو من البداية إلى النهاية ، كما يفعل المؤلف بالموضوع الموسيقي ، ولم يكن الفنان المسلم يرى أن أية مادة مهما قست تستعصي على فنه ؛ ولهذا أصبح الخشب ، والمعدن ، والآجر ، والجص ، والحجر ، والقرميد ، والزجاج ، والقاشاني — أصبحت هذه كلها وسائل يستخدمها لإظهار ما في خياله من صور وأشكال فنية مجردة لم يسم إلى مستواها فن آخر من قبل لا نستثني من ذلك الفن الصيني نفسه .

واستعانت العمارة الإسلامية بهذا الفن الزخرفي فأقامت في جزيرة العرب ، وفلسطين ، والشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والتركستان ، والهند ، ومصر

وتونس ، وصقلية ، ومراكش ، والأندلس — أقامت فى هذه البلاد كلها عدداً لا يحصى من المساجد جمعت بين القوة والمتانة فى خارجها ، والرشاقة والرقة فى داخلها ، نذكر منها مساجد المدينة ، ومكة ، وبيت المقدس ، والرملة ، ودمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وشيراز ، ونيسابور ، وأردبيل ، ومسجد جعفر فى بغداد ؛ ومسجد سر من رأى العظيم ، ومسجد زكريا فى حلب ، ومسجد ابن طولون والجامع الأزهر فى القاهرة ، ومسجد تونس الكبير ، ومسجد سيدى عقبة فى القيروان ، والمسجد الأزرق فى قرطبة — وليس فى مقدورنا إلا أن نكتفى بذكر أسمائها لأن مئات المساجد التى بنيت فى ذلك الوقت لم يبق منها ما يمكن تمييزه إلا عشرة أو نحوها ، أما سائرها فقد عدا عليه الزمان فدمره بفعل الزلازل أو الإهمال أو الحروب .

وقد كشف فى العصر الحديث فى بلاد الفرس وحدها — وهى جزء صغير من بلاد الإسلام — عن صروح فخمة لم يكن يدور بخلدنا أنها توجد فى تلك البـــلاد ؛ وكان كشف آثارها من الحادثات الكبرى فى إزاحة الستار عن الماضى المجهول(*) وإن كان هذا الكشف قد جاء بعد أوانه بزمن طويل ؛ لأن كثيراً من روائع العمارة الفارسية قد عبثت به قبل ذلك الكشف يد الزمان فلم تبق منه شيئاً . وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام أن المقدسى يصف فى فارس مساجد لا تقل روعة عن مساجد المدينة ودمشق ويقول إن مسجد نيسابور ذا العمد الرخامية ، والصفائح الذهبيـــة ، والجدران ذات النقوش المحفورة الكثيرة كان من عجائب الزمان ؛ وإنه لم يكن فى خراسان أو سجستان من المساجد ما يضارع فى جماله مسجد هيراة(١٣٢) . وفى وسعنا أن نصور لأنفسنا صورة غامضة مما بلغته

(*) فى عام ١٩٢٥ صرح رضا خان ، الذى جلس بعدئذ على عرش فارس ، إلى آرثر أبهام پوپ **Arthur Upham Pope** بدخول مساجد بلاد الفرس وكان محرماً على غير المسلمين من قبل أن يدخلوها ، لكى يصورها من الداخل . وكان هذا حادثاً عظيما كشف للعالم عن بدائع الفن الفارسى وروعته.

العمارة الفارسية فى القرنين التاسع والعاشر من روعة ووفرة ، بدراسة النقوش الجصية البارزة ، والعمد والتيجان المحفورة الباقية ، من محراب مسجد نايين الجامع المخرب ، والمئذنتين الجميلتين الباقيتين فى دمغان . وقد بقى من مسجد أردستان (١٠٥٥) محراب وباب جميلان ، كما كشف فيه عن كثير من العناصر التى تجلت فيما بعد فى العقود القوطية المستدقة ، والأكتاف المركبة ، والأقبية المتقاطعة ، والقبة المضلعة[١٣٣] . وكانت المادة التى شيدت منها هذه المساجد والكثرة الغالبة من المساجد والقصور الفارسية هى الآجر ، شأنها فى ذلك شأن المبانى القديمة فى بلاد سومر وأرض الجزيرة ؛ وسبب ذلك ندرة الحجارة وكثرة ما تتطلبه من النفقات ، ووفرة الطين والنيران ؛ لكن الفنان الفارسى قد حول طبقات الآجر بفضل ما أدخله عليها من الضوء والظل ، والنماذج الفنية الجديدة ، والأوضاع الفنية المختلفة ، حول هذه الطبقات إلى أنواع من الزخرف لم تعرف هذه المادة القليلة الشأن نظيراً لها من قبل . وقد كسا الخزاف الفارسى الآجر فى أماكن خاصة ، كمداخل المساجد والمنابر والمحاريب ، بطبقة من الفسيفساء متعددة الألوان ، وبالقرميد الزاهى البراق ؛ ولما أقبل القرن الحادى عشر زاد السطح البراق لألاء وبهاء بطبقة من القاشانى الملون اللامع . وهكذا خدم المسجد كل فن فى بلاد الإسلام ، نزل إلى هذه الخدمة من العلياء وكسب بها فكراً وكبرياء .

وإذ كان قد حرم على المثال أن ينحت التماثيل خشية أن يعود الناس إلى عبادة الأوثان ، فقد وجه جهوده إلى الزخرفة بالنقوش البارزة . فأتقن نحت الحجارة ، وشكل الجص باليد قبل أن يجف ، وصاغ منه أشكالا كثيرة مختلفة ؛ وقد بقى أنموذج رائع من هذه العمائر ، وهو القصر الشتوى الذى بدأه الوليد الثانى عام ٧٤٣ بالصحراء الشرقية إلى شرق نهر الأردن وتركه دون أن يتمه . وكان حول سطح الواجهة من أسفل إفريز من الحجر المنحوت ذو جمال بارع يتكون نقشه من مثلثات وأزهار الورد يحيط بها إطار من الأزهار ، والفاكهة ، والطير ،

والحيوان ، والنقش العربى . وقد نقل هذا النقش الرائع إلى برلين فى عام ١٩٠٤ ونجا من الدمار فى أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان النجارون يجملون النوافذ ، والأبواب ، والستر الخشبية ، والشرفات ، والسقف ، والمناضد ، وكراسى المصاحف ، والمنابر ، والمحاريب ، ويبدعون فى نقشها إبداعا يستطيع الإنسان أن يراه فى لوحة وجدت فى تكريت ونقلت إلى المتحف الفنى فى نيويورك . كذلك كان الصناع المشتغلون بنحت العاج والخشب يزينون بفنهم المساجد ، والمصاحف ، والأثاث ، والآنية ، والأشخاص أنفسهم ، ويجملونها بمصنوعاتهم المنحوتة والمطعمة . غير أنه لم يصلنا من مصنوعات ذلك العصر إلا قطعة واحدة هى طابية من قطع الشطرنج (توجد الآن فى المتحف الأهلى بفلورنس) ويقال إنها إحدى قطع الشطرنج الذى أهداه هرون الرشيد إلى شارلمان فى القرن التاسع الميلادى(١٣٤) . كذلك أخذ صانعو المعادن المسلمون عن الساسانيين هذا الفن الدقيق ، وصنعوا من النحاس والشبه مصابيح ، وأباريق ، وجفانا ، وجرارا ، وكيزانا ، وأقداحا ، وأطساتا ، ومواقد ؛ وصبوها فى صور الآساد ، والأفاعى ، وآباء الهول ، والطواويس ، واليمام ؛ ونقشوا عليها فى بعض الأحيان رسوماً بديعة نشاهد مثلا منها فى المصباح الشبيه بالقماش المخرم والمحفوظ فى معهد الفن بمدينة تشكاجو . ومن الصناع من كانوا يحشون الرسوم المحفورة بالفضة والذهب ، ويبدعون المصنوعات المعدنية « الدمشقية » أى المزخرفة بفن الدمشقيين وإن لم يكن قد نشأ فى مدينتهم(١٣٥) . وكانت السيوف الدمشقية تصنع من الفولاذ المسقى المزين بالنقوش البارزة أو المطعم بالرسوم العربية ، أو الحروف الهجائية ، أو غيرها من الأشكال المتخذة من خيوط الذهب أو الفضة . وقصارى القول أن صناع المعادن المسلمين قد برعوا فى هذا الفن براعة ليس بعدها زيادة لمستزيد .

ولما انتهى عصر الفتوح الإسلامية واستقر المسلمون فى البلاد المفتوحة وأخذوا عنها ثقافتها ألفوا أنفسهم فى صناعة الفخار الوارثين لتقاليد خمسة فى هذا

الفن هى التقاليد المصرية ، والإغريقية — والرومانية ، والعراقية ، والفارسية ، والصينية . ونقول الصينية لأن سار Sarre كشف فى سر من رأى فخارا من عهد أسرة تانج ومعه قطع من الخزف الصينى الرقيق ؛ وكانت الأوانى الفارسية — الإسلامية فى عهدها الأول منقولة نقلا لا خفاء فيه عن نماذج صينية . ونشأت مراكز صناعة الفخار فى بغداد وسامرا(*)، والرى ، وكثير غيرها من البلدان . ولم يحل القرن العاشر الميلادى حتى كان صانعو الفخار من الفرس يصنعون كل أنواع الآنية الفخارية ما عدا الخزف الصينى ، ويصنعونه فى أشكال لا حصر لها تبدأ من المباصق اليدوية الصغيرة إلى المزهريات الضخمة المهولة ، التى تتسع فى القليل لأحد « اللصوص الأربعين »(١٣٦) ، ويتبين الإنسان فى خير المصنوعات الفخارية الفارسية دقة فى التصوير ، وبراعة فى التلوين ، وحذقا فى الصناعة لا تسمو عليها إلا الصناعتان الصينية واليابانية ؛ وظلت ستة قرون لا تضارعها صناعة أخرى فى جميع الأقاليم الممتدة جنوب هضبة الپامير وغربها(١٣٧) ؛ وكان هذا الفن من أحب الفنون إلى الفرس وأكثرها مواءمة لهم ؛ وكان أهل الطبقة العليا منهم يحرصون أشد الحرص على جمع روائعه ، وكثيراً ما أخذ عنه الشعراء أمثال أبى العلاء المعرى وعمر الخيام تشبيهات واستعارات فى أقوالهم الفلسفية . ويحدثنا الكتاب عن مأدبة أقيمت فى القرن التاسع ارتجلت فيها قصائد ، وأهديت إلى الآنية التى كانت تزدان بها المائدة(١٣٨) .

وقد امتاز صانعو الفخار فى سامرا وبغداد فى ذلك القرن بصنع الفخار اللامع أو لعلهم هم ابتدعوه ابتداعا . وكانت النقوش التى تحليه ترسم بأكسيد معدنى على طبقة من الطين المزجج ، ثم يعرض الإناء بعدئذ إلى نار ثانية مدخنة مكتومة تحول الصبغة إلى طبقة معدنية رقيقة ، وتكسب الطلاء بريقا متعدد

(*) وهى مُسرّ من رأى وتسمى أيضاً مُسرّاء . (المترجم)

الألوان . وبهذه الطريقة أخرج الصناع أوانى ذات لون واحد جميل ، وأخرى ذات ألوان متعددة أجمل منها خضراء ذهبية ، وبنية داكنة ، وصفراء ، وحمراء ، تتدرج بعضها تدرجاً لا يكاد الإنسان يحسه ولا تقل عن المائة عدا . وكذلك طبق هذا الفن نفسه فن الطلاء البراق على قطع الفرميد التى كانت تستخدم للزينة فى فن العراق القديم ، فكانت ألوان هذه المربعات الكثيرة وما تألف منها من وحدات متناسقة مما أكسب مداخل مئات المساجد ومحاريبها وكثيراً من جدران قصور العظماء روعة منقطعة النظير . وورث المسلمون فى صناعة الزجاج — وهو الفن الشديد الاتصال بصناعة الفخار — كل ما امتاز به أهل مصر والشام من حذق وبراعة ، فقد لونوا المصابيح بظلال من الألوان البراقة المتعددة ، وزينوها بالرصائع والنقوش ، ورسوم النبات والأزهار ؛ ولعل أهل الشام قد ابتدعوا فى ذلك الوقت فن طلاء الزجاج بالميناء ، وهو الفن الذى بلغ ذروة مجده فى القرن الثالث عشر .

وإذا ما ذكرنا سعة انتشار فنى التصوير والنحت فى الكنائس الكاثوليكية الكبرى وهى التى لا تكاد تخلو من آثاره واحدة منها ، وذكرنا فى الوقت نفسه أهمية هذين الفنين فى نشر العقائد والقصص المسيحية ، إذا ما ذكرنا هذا وذاك دهشنا لعدم وجود نظيريهما فى الإسلام . نعم إن القرآن قد حرم النحت (سورة المائدة الآية ٨٩) ولكنه لم يقل شيئاً عن التصوير ؛ غير أن حديثاً يعزى إلى عائشة يقول إن النبى قد نهى أيضاً عنه(١٣٩) . ولهذا فإن الشريعة الإسلامية عند الشيعة وعند أهل السنة على السواء تحرم التصوير وإقامة التماثيل جميعا . ولهذ التحريم نظير فى الوصية الثانية وفى التعاليم اليهودية . ولعل من أسباب هذا التحريم الاعتقاد أن الفنان حين يخرج مثالا للكائنات الحية إنما يدعى لنفسه ما هو من حقوق الخالق جل جلاله . ومن علماء الدين من يتساهلون فى هذا فيجيزون تصوير الجماد . ومنهم من يتغاضون عن تصوير الحيـــوان أو الإنسان على

الأشياء التى لا تستعمل إلا فى الأغراض الدنيوية . وكان بعض خلفاء بنى أمية لا يعبئون قط بهذا التحريم ؛ وشاهد ذلك أن الوليد الأول زين قصره الصيفى فى قصير عمره حوالى عام ٧١٢ بمظلمات هلنستية صور فيها رجالا يطاردون الوحوش ، وبنات يرقصن ، ونساء يغتسلن ، وهو جالس فوق عرشه يشاهد هذا كله(١٤٠) . وكان خلفاء بنى العباس يجهرون بتقواهم ، ولكن كانت لهم قصور حوت فى حجراتهم الخاصة جدراناً مزينة بالصور ؛ وقد استأجر المعتصم فنانين ، أغلب الظن أنهم مسيحيون ، ليصوروا على جدران قصره فى سامرا مناظر صيد ، ورجال دين ، وبنات عاريات يرقصن ؛ وأجاز المتوكل ، وهو الذى كان يضطهد الملحدين ، المصورين من أهل بيزنطية أن يضيفوا إلى هذه المظلمات مظلما آخر يمثل رهباناً مسيحيين وكنيسة مسيحية(١٤١) .

وزين محمود الغزنوى قصره بصور تمثله هو وجيوشه ، وفيلته ؛ وغطى ابنه مسعود ، قبل أن يخلعه الأتراك السلاجقة عن عرشه بزمن قليل ، جدران حجرات قصره فى هراة بمناظر قائمة على أسس مأخوذة من كتب الفن الشهوانى الفارسى أو الهندى(١٤٢) . وتروى إحدى القصص أن اثنين من رجال الفن أخذا يتباريان فى بيت أحد الوزراء فى التصوير الواقعى ؛ فعرض أحدهما أن يصور فتاة راقصة تبدو كأنها خارجة من باطن الجدار ؛ وعرض الثانى أن يقوم بعمل أشق من هذا — وهو أن يصورها بحيث تبدو وهى تهم بدخول الجدار . ونجح كلاهما فى إبراز فكرته نجاحا حمل الوزير على أن يخلع عليهما خلعاً سنية ويهبهما كثيرا من الذهب(١٤٣) . وفى وسعنا أن نذكر كثيراً من الشواهد الدالة على أن المسلمين قد خالفوا أمر التحريم ؛ وحسبنا أن نقول إنا نجد فى بلاد الفرس بنوع خاص حيوانات وأناسى مصورة بكثرة يطرب لها الرائى ، وممثلة بجميع أنواع فنون التصوير . ولكن التحريم رغم هذا كله ، يؤيده الشعب تأييداً وصل من القوة إلى درجة أن كان بعض أفراده يشوهون روائع الفن أو يتلفونها ، قد عاق

نمو فن التصوير الإسلامى ، حتى اقتصر الكثير منه على التحلية المجردة ، وكاد يمنع تصوير الأشخاص (وإن كنا نسمع عن وجود أربعين صورة لابن سينا) ، وترك الفنانين يعتمدون كل الاعتماد على مناصرة الملوك أو الأشراف .

ولم يبق من صور الجدران فى ذلك العصر إلا صور قصيرة عمرة ؛ وهى تكشف عن خليط غريب مجدب من القواعد الفنية البيزنطية والأنماط الساسانية . وكأن المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فارتفعوا بالرسوم الصغرى على العاج ومثله إلى درجة من الجمال لا تعلو عليها درجة أخرى فى التاريخ كله . وقد وجد هذا الفن تراثا متعدد الأنماط بنى عليه ، وأخرج منه ثماراً مختلفة ، ونعنى بذلك التراث البيزنطى ، والساسانى ، والصينى ؛ وكان تزيين المخطوطات الإسلامية بالرسوم الصغيرة فى العصور الوسطى فناً اختصت به طبقات الأشراف القليلة العدد ، شأنه فى هذا شأن موسيقى الحجرات فى أوربا الحديثة ؛ فقد كان الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون الاحتفاظ بالفنان الفقير المخلص لفنه فقراً وإخلاصاً أنتجا هذه الروائع التى تتطلب كثيراً من الجد والأناة . وهنا أيضاً أخضع التزيين تمثيل الكائنات الحية لسلطانه ؛ فأغفل الفنان عن قصد قواعد المنظور ، وخرج على الشكل الذى اتخذه أنموذجا له ، فكان يعمد إلى موضوع أو شكل مركزى — قد يكون شكلا هندسياً أو زهرة واحدة — ويتبسط فيه ويتوسع ويخلق منه مائة صورة مختلفة حتى لتكاد كل إصبع من الصفحة بما فى ذلك إطارها تمتلئ بالخطوط المرسومة بدقة متناهية كأنها قد حفرت حفراً . وكان فى وسع الفنان أن يزين الكتب غير الدينية بصور للرجال والنساء والحيوان ، فى مناظر الصيد واللهو والحب ، ولكن طراز التزيين كان هو بعينه على الدوام ، كان هو الصورة المكونة من خطوط دقيقة ، ومن ألوان مؤتلفة منسجمة يفنى بعضها فى بعض ، ومن الجمال المجرد الهادئ البالغ أقصى درجات الكمال ، والذى يهدف إلى متعة العقل المطمئن المستريح .

وكان الخط العربى الجميل جزءاً لا يتجزأ من فن التنميق ؛ ولسنا نجد مثالا آخر لاجتماع الكتابة والتصوير وتآخيهما على هذا النحو إلا فى بلاد الصين البعيدة . لقد كانت الحروف الكوفية فى موطنها الأول ، بلدة الكوفة نفسها ، حروفاً سمجة ذات زوايا ، وأركان محددة فجة ، ولكن الخطاط كسا هذه العظام العجاف بالحركات وعلامات الإمالة والنقط وحروف المد ورسوم صغيرة متخذة من أوراق النبات ؛ فلما ارتقى الخط الكوفى إلى هذه الدرجة من الجمال أصبح كثير الاستعمال فى تزيين المبانى نفسها . أما الكتابة الدارجة فكان خط النسج فيها أكثر جاذبية من الخط الكوفى ؛ وكانت حروفه المستديرة وكان امتداد الأفقى المتعرج كان هذان فى حد ذاتهما وسيلة للزينة فى غنى عن الإضافات الأخرى . وليس فى خطوط العالم كله سواء كانت مكتوبة باليد أو مطبوعة ما يضارع هذا الخط فى جماله ؛ ولم يحل القرن العاشر حتى كانت له الغلبة على الخط الكوفى فى تزيين المبانى أو الخزف ؛ والكثرة الغالبة من الكتب الإسلامية التى وصلت إلينا من العصور الوسطى مكتوبة بخط النسخ ؛ ومعظم هذه من المصاحف لأن كتابة القرآن كانت فى حد ذاتها من الأعمال الصالحة التى يثاب عليها صاحبها ؛ وكان تزيينها بالصور يعد انتهاكا لحرمتها ، ولكن كتابتها بالخط الجميل كانت تعد من أشرف الفنون . وبينما كان رسامو الصور الصغيرة على العاج أو غيره صناعا يستأجرون بأجر قليل ، كان الخطاطون يبحث عنهم فى جميع أنحاء البلاد ويغدق عليهم الموك والأمراء الهدايا والأموال ، وكان منهم هم أنفسهم ملوك وساسة . وكانت الرقعة المكتوبة بيد أحد هؤلاء الفنانين كنزاً لا يقدر بمال ، وكان فى البلاد منذ القرن العاشر طائفة من المولعين بجمع الكتب يعيشون ويتحركون ويقضون حياتهم كلها بين ما جمعوه من المخطوطات الجميلة المكتوبة على الرق بالمداد الأسود ، والأزرق ، والبنفسجى ، والأحمر ، وبالذهب الإبريز . ولم يصل لنا إلا عدد قليل من كتب ذلك العصر ، وأقدمها كلها نسخة من القرآن موجودة

فى دار الكتب المصرية بالقاهرة يرجع تاريخها إلى عام ٧٨٤ ؛ وإذا ذكرنا بعد ذلك أن هذه الكتب كانت تجلد بأعظم أنواع الجلد ليناً ومتانة ، وأنه قد بذل فى تجليدها من حسن الذوق ومن المهارة ما لا زيادة بعده لمستزيد ، وأن الجلد المغلفة به كان فى كثير من الأحيان يزدان بأجمل الرسوم وأدقها ، إذا ذكرنا هذا حق لنا أن نقول دون أن نتهم بالمغالاة إن الكتب الإسلامية من بداية القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر هى أجمل ما رأته العين من الكتب فى العالم كله . وهل منا من يطمع فى أن تنشر كتبه اليوم بهذا الرونق وتلك الفخامة ؟

وقد اجتمعت الفنون كلها فى تزيين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى ذروة الجمال ، فامتزجت أشكال الرسوم الدقيقة بالخط الجميل فى المنسوجات ، وطبعت بالنار على الفخار ؛ وأقيمت على مداخل المبانى والمحاريب . وإذا كانت حضارة العصور الوسطى لم تفرق بين الصانع الماهر والفنان ، فلم يكن ذلك ليحط من شأن الفنان ، بل كان يرفع من قدر الصانع الماهر ، وكان الهدف الذى تبتغيه كل صناعة أن تصبح فناً من الفنون الجميلة . لقد كان الناسج يخرج منسوجات عادية يستعملها عامة الناس وتبلى بعد قليل ، مثله فى هذا كمثل صانع الفخار سواء بسواء ؛ ولكنه كان فى بعض الأحيان يعبر عن حذقه وصبره ، كما يصور أحلامه ، فى الأثواب ، والسجف ، والطنافس ، وأغطية الفراش ، والنسيج المطرز ، والحرير المشجر ، يخرجه ليبقى عدة أجيال ، وقد أبدع نقشه ، وصبغه بالألوان الزاهية المحبوبة فى بلاد الشرق . لقد كانت المنسوجات البيزنطية ، والقبطية ، والساسانية ، والصينية ذائعة الصيت حين فتح المسلمون بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، والتركستان ؛ وما أسرع ما تعلم المسلمون صناعات تلك البلاد ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى أخرجت المصانع الإسلامية المنسوجات الحريرية التى نهى النبى عن لبسها ، وأخرجتها بكثرة ، ولبسها النساء والرجال وهم يدعون الله أن يغفر لهم خطاياهم الجسمية والروحية . وكانت خلة الشرف أثمن ما يستطيع الخليفة أن يخلعه على من

يؤدى له خدمة جليلة ؛ وسرعان ما أصبح المسلمون كبار تجار الحرير فى العالم كله فى العصور الوسطى . وكانت أقمشة التفتاه الحريرية تبتاع لملابس السيدات فى أوربا ، واشتهرت شيراز بالأقمشة الصوفية ، كما اشتهرت بغداد بأقمشة الستائر ، والمظلات ، والحرير الممزوج ، وخوزستان بالأقمشة المنسوجة من وبر الجمال وشعر الماعز ، وخراسان بأغطية الهوادج ، وصور بالطنافس ، وبخارى بسجاجيد الصلاة ، وهراة بالحرير المنقوش بخيوط الذهب . ولقد عدا الدهر على هذا كله فلم يبق لنا منه مثال واحد ، وكل ما نستطيعه هو أن نتصور ما كانت عليه هذه المنسوجات من الرونق والفخامة بالنظر إلى ما كان منها فى القرون التالية ، وبدراسة ما وصفها به الكتاب المعاصرون لها . وقد وجدت فى المحفوظات الباقية من أيام هرون الرشيد مذكرة جاء فيها « ٤٠٠ر٠٠٠ قطعة من الذهب ثمن حلة وهبت لجعفر بن يحيى الوزير »(١٤٤) .

الفصل الثامن

الموسيقى

كانت الموسيقى فى أول الأمر محرمة فى الإسلام تعدّ من الآثام ، شأنها فى ذلك شأن النحت(١٤٥) . نعم إنه لم ينص على تحريمها فى القرآن ، ولكن حديثاً مشكوكاً فى صحته يعزو إلى النبى أنه لخوفه من عاقبة أغانى النساء الخليعات ورقصهن قال ما معناه إن الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته . وكان علماء الدين وأتباع المذاهب الأربعة ينفرون من الموسيقى لأنها تثير الشهوات ، ولكن منهم من قال متسامحاً إنها ليست إثماً فى ذاتها . أما الناس ، وهم أحكم فى مسلكهم منهم فى عقائدهم ، فكان يجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال أن « الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما »(١٤٦) . وقد رافقت الموسيقى كل مرحلة من مراحل الحياة الإسلامية وملأت آلاف الليالى العربية بأغانى الحب والحرب والموت ؛ فكانت قصور الأمراء وكثير من بيوت العظماء تستخدم المغنين ليطربوا أهلها بقصائد الشعراء أو بقصائدهم هم أنفسهم ، وفى ذلك يقول مؤرخ قدير صائب الحكم على هذه الأمور قولا خليقا بأن يثير الدهشة : إن المنزلة التى بلغتها الموسيقى بجميع فروعها عند العرب لتزرى بمنزلة هذا الفن فى تاريخ أى بلد آخر(١٤٧) » . نعم إن الأذن الغربية لا تستطيع بغير مران طويل أن تقدر خصائص الموسيقى العربية — ونعنى بتلك الخصائص تفضيلها حسن الإيقاع على انسجام الألحان ، وتقسيم النغمات إلى أثلاث لا إلى أنصاف ، وما فى تكوينها وتوقيعها من نضارة وبهجة هى من مميزات بلاد الشرق . وقد تبدو لنا نحن الغربيين تكراراً بسيطا ، محزنا مملا ، غريبا مستهجنا غير منتظم . لكن الموسيقى الأوربية نفسها تبدو للعربى ناقصة فى عدد نغماتها ،

وفى دقة هذه النغمات ؛ مولعة إلى حد الإسفاف بالتعقيد الذى لاخير فيه ، وبالأصوات الناشزة الشديدة الارتفاع . وإن ما فى الموسيقى العربية من رقة تبعث على التفكير لتؤثر فى نفس المسلم أعمق التأثير . ويحدثنا السعدى عن غلام يغنى بنغمة محزنة مؤثرة تستوقف الطائر فى كبد السماء[١٤٨] . ويصف الغزالى النشوة بأنها الحالة التى يبعثها الاستماع إلى الموسيقى[١٤٩] . وقد أفرد أحد المؤلفين العرب فصلا فى كتابه للحديث عن الذين فقدوا وعيهم أو ماتوا وهم يستمعون إلى الموسيقى الإسلامية ، وقد استعان بها الدراويش فى أذكارهم وشعائرهم وإن كان الدين نفسه قد ندد بها فى أول الأمر :

وبدأت الموسيقى الإسلامية بالألحان والأشكال الساميّة القديمة ، ثم تطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الأسيوية النشأة وتأثرت تأثراً قويا بالموسيقى الفارسية والهندية . وقد أخذت إحدى العلامات وكثير من القواعد الموسيقية عن اليونان ؛ وللكندى ، وابن سينا ، وإخوان الصفا ، كتاباب مطولة فى هذا الموضوع ؛ وكتاب الفارابى فى الموسيقى أشهر ما ألف فى العصور الوسطى فى النظريات الموسيقية وهو « يضارع أى كتاب وصل إلينا من المصادر اليونانية إن لم يفقه »[١٥٠] . وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع السلم الموسيقى (ويبدو أن ذلك لم يكن معروفاً فى أوربا قبل عام ١١٩٠)[١٥١] — وكانت علاماتهم تدل على طول الزمن الذى تمتد إليه كل نغمة وعلى مقامها[١٥٢] .

وكان عند العرب آلات موسيقية تبلغ المائة عدّا أشهرها كلها العود ، والقيثارة ، والبندور ، والسنطير ، والناى ، يقويها فى بعض الأحيان البوق ، والدف ، والصنج ، والرق ، والطبل . وكان العود على أنواع وأحجام كثيرة لا تقل عن الاثنى عشر ؛ وكان الكبير منها يسمى القيثارة . وعن العرب أخذت كلمتا guitar ، و lute ؛ وكان القوس يستعمل للعزف على بعض الآلات الوترية ، وكان الأرغن بنوعيه الهوائى والمائى معروفاً عند العرب ؛ وقد اشتهرت

بعض المدن الإسلامية كإشبيلية بصنع الآلات الموسيقية الدقيقة التى لاتضارعها آلات أخرى مما كان يصنع وقتئذ فى بلاد الإسلام(١٥٢) . وكان يقصد بالموسيقى الآلية كلها تقريباً أن تصحب الغناء أو أن تكون مقدمة له . وكان يقتصر فى العادة على استخدام أربع آلات أوخمس فى وقت واحد ، ولكننا نقرأ أيضاً عن فِرَق موسيقية كبيرة العدد(١٥٣) ، وتقول إحدى الروايات المتواترة إن سريج الموسيقى من أهل المدينة أول من استعمل القضيب(١٥٤) .

وكانت منزلة الموسيقيين عند المسلمين منحطة إذا استثنينا مشهورى الفنانين وذلك على الرغم من ولع المسلمين بهذا الفن ولعاً يبلغ حد الجنون . وشاهد ذلك أننا قلما نرى من أفراد الطبقات العليا من نزل من علیائه فدرس هذا الفن الفاتن الذى يسلب العقول . ومن أجل هذا كانت الموسيقى فى بيوت الأغنياء من عمل القيان ، ومن المشترعين فئة تقول إن شهادة الموسيقى لا تقبل فى المحكمة(١٥٥) . كذلك كاد الرقص عندهم يقتصر على الجوارى يدربن عليه ويستأجرن له ؛ وكان فى كثير من الأحيان رقصاً شهوانياً ، وفى كثير منها فنياً . وقد أقام الخليفة الأمين حفلة راقصة دامت طول الليل رقص فيها عدد كبير من الفتيات وغنّين . ولما اتصل العرب باليونان والفرس ارتفعت منزلة الموسيقيين عندهم ، وكان الخلفاء الأمويون والعباسيون يغدقون الهبات على كبار الموسيقيين فى أيامهم ؛ فهاهو ذا سليمان بن عبد الملك يعرض جوائز تبلغ عشرين ألف قطعة من الفضة (١٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) لمباراة بين الموسيقيين فى مكة . وهاهو ذا الوليد الثانى يعقد مباريات فى الغناء كانت الجائزة الأولى فى واحدة منها ٣٠٠٫٠٠٠ قطعة من الفضة (١٥٠٫٠٠٠ دولار أمريكى)(١٥٦) ، وربما كانت هذه الأرقام مبالغاً فيها كعادة أهل الشرق . وقد دعا المهدى إلى بلاطه مغنياً مشهوراً من أهل مكة ، ودعا هرون الرشيد إلى بلاطه إبراهيم الموصلى وأعطاه ١٥٠٫٠٠٠ درهم (٧٥٫٠٠٠ دولار أمريكى) ورتب له عشرة آلاف كل شهر ووهبه ١٠٠٫٠٠٠ نظير أغنية واحدة . وقد بلغ من حب هرون للموسيقى أن شجع تلك الموهبة فى

أخيه لأبيه ، الشاب إبراهيم بن المهدى — على الرغم من تقاليد طبقته — لأن إبراهيم كان له صوت غاية فى القوة يبلغ مداه ثمانى طبقات . وإن الزمن ليتضاءل فى خيالنا وتضيق دائرته إلى أقصى حد عند ما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية فى الموسيقى العربية مضادة للنزعة الإتباعية نزعة إسحق بن إبراهيم الموصلي . وكان المأمون يقول عنه إنه لم يغنّ لى قط إلا شعرت بأنى قد اتسع ملكى (١٥٩) .

والقصة الآتية التى يرويها مخارق تلميذ إبراهيم الموصلى تصور لنا المجتمع الإسلامى بصورة مبهجة ، وتظهر ما كان للموسيقى الإسلامية من أثر قوى فى نفس المسلم ؛ ولسنا فى حاجة إلى تصديقها لكى نحس بمغزاها ، قال :

تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بمائة ألف درهم ، فقيل له : كيف ذلك؟ قال : شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا سيدى إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فأخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين ؟ قال نعم ، وأمر البوابين أن يتركونى ؛ فخرجت أتمشى وإذا أنا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها فتبعتها ، ورأيت معها زنبيلا فوقفت على صاحب فاكهة فاشترت منه سفرجلة بدرهم ، ورمانة بدرهم وكمثراية بدرهم وانصرفت . فتبعتها ، فالتفتت فرأتنى فقالت يا ابن الفاعلة إلى أين تريد ؟ قلت خلفك يا سيدتى ؛ فقالت ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحد فيقتلك . فتأخرت ومشيت من بعيد وهى تمشى أمامى ، ثم التفتت فرأتنى فشتمتنى شتما قبيحاً . ثم جاءت إلى باب كبير فدخلتْ فيه وجلست أنا بحذاء الباب ، وقد ذهب عقلى ، ونزلت علىّ الشمس ، وكان يوماً حاراً ، فما لبثت أن جاء فتَيان كأنهما بدران على حمارين ؛ فلما وصلا إلى الباب استأذنا فأذن لهما ، فدخلا ، ودخلت معهما ، فظنا أن صاحب المنزل قد دعانى . وجىء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم قال لنا صاحب المنزل : هل لكما فى فلانة ؟ قالوا : إن تفضلت . فاستدعى تلك الجارية ، فخرجت صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعته فى حجرها وغنت ، فشربوا وطربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . ثم غنت صوتاً آخر فشربوا

وطربوا وهى تلحظنى وتشك فىّ ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق ؛ ثم غنت صوتاً ثالثا فطربوا وشربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدى بدك فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذى تقول عليه . فاستدعيت بدواة وقضيب وغنيت الصوت الذى غنته الجارية أولا ، فقاموا إلىّ وقبلوا رأسى . (قال الراوى) وكان مخارق أحسن الناس صوتا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيبا . ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقولهم تطير ، فقالوا بالله من أنت يا سيدى ؟ فقلت : أنا مخارق . فقالوا ما سبب مجيئك ؟ قلت : طفيلى أصلحكم الله ، وأخبرتهم بخبرى ، فقال صاحب البيت لصديقيه : أما تعلمان أنى أعطيت فى الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها ؟ قالا : بلى . قال : هى له . قال صديقاه : علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف . قال مخارق فملكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها (وبغيرها من الأثواب الغالية والهدايا الأخرى الثمينة التى أهدوها إلىّ) ، وكلما مرت بالمواضع التى شتمتنى فيها أقول لها : يا مولاتى : أعيدى كلامك ؛ فتستحى منى فأحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلنا إلى باب أمير المؤمنين (فقيل لى إنه انتبه وطلبك فى منازل أبناء القواد فلم يجدك وتغيظ عليك غيظا شديداً) ، فدخلت عليه ويدى فى يدها فلما رآنى سبّنى وشتمنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين : لا تعجل . وحدثته القصة فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك . فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ولى بعشرة آلاف(١٦٠)(*) .

(*) نقل المؤلف هذه القصة عن كتاب **Arabian Society in the Middle Ages** (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) تأليف إدورد لين **Edward Lane** ونقلها لين عن كتاب حلبة الكميت . ونقلناها نحن عن الكتاب الأخير وهى مطابقة فى جملتها لما ورد فى كتاب لين عدا الجزأين المحصورين بين أقواس فالجزء الأول غير موجود فى حلبة الكميت ، والجزء الثانى غير موجود فى الأصل الإنجليزى ؛ ولعل مؤلفنا أو لعل لين نفسه قد حذفه . وهناك اختلاف آخر فيما كافأ به الخليفة صاحب الجارية وصديقيه فمؤلفنا يقول إن أمير المؤمنين أعطى صاحب الجارية أربعين ألف درهم ، وكل واحد من صديقيه ثلاثين ألفا ، ومخارقاً مائة ألف ، أما صاحب حلبة الكميت فيقول إنه أمر لسيد الجارية ولكل واحد من صاحبيه بثلاثين ألف درهم ، ولمخارق بعشرة آلاف ، وهذا يتفق مع ما جاء فى أول القصة الذى لم ينقله المؤلف . (المترجم)